كيد النساء

في

القرآن - بيوت الأنبياء - التاريخ

إعداد

صبحي صلاح إسماعيل



بطاقة فهرسة

مكتبـة جزيـرة الـورد

اسم الكتاب: كيـد النسـاء

إعـــــداد: صبحي صلاح إسماعيل

رقم الإيداع:

الطبعه الاولى ٢٠١٢



القاهــرة : ٤ ميــدان حليــم خلــف بنــك فيصــل
ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

المقدمـة

هذا الكتاب الذي بين أيديكم هو نوع من كتابة التاريخ الذي تصنعه شهوة النساء للمال والسلطة وتدمر من أجل ذلك أمما وممالك وتقتل في سبيل ذلك ملايين البشر، قد تكون قصصا مسلية لكنها تحمل مآسٍ مروعة.

وقد آثرت في هذا الكتاب أن أدخل في حقول ألغام خشي الكثيرون الدخول فيها أو تسميتها بأسمائها، فالكيد والمكر مذكوران في القرآن الكريم وفى بيوت الأنبياء.

فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز:{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ } [الأنفال: ٣٠]، وقال أيضا أن الكفار:{يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: ١٥ - ١٦]، ولكن هيهات والكيد لا يقتصر على النساء كما يدعى الكثيرون ولكن جميع البشر يكيدون ويمكرون مع اختلاف الأهداف والسبل، لكن الكيد اقتصر على النساء لأنهم لا يملكون غيره، وقد استخدم الجميع قول الله في سورة يوسف:{إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف: ٢٨]، ولعل أكثر سور القرآن التي تبرز الكيد هي سورة يوسف، فامرأة العزيز تكيد ليوسف وتكيد لنساء المدينة وأخوة يوسف يكيدون له وهو يمكر لهم.

الكيد وسيلة لتحقيق هدف قد تكون مشروعة من وجهة نظر مستخدمها وقد تكون للدفاع عن النفس، ولكن النتائج في النهاية كانت كارثية، فمصر أكل أهلها الحمير والقطط والكلاب ولحوم البشر بسبب الكيد والسعى لامتلاك السلطة، وروما احترقت وممالك عديدة أبيدت وجاع أهلها.

هذا الكتاب ليس مجرد قصص كما قلت في البداية، إنه التاريخ ملطخ بالعار وإن شاء الله في الطبعة التالية سيضم عددا آخر من المكائد التي دمرت دولا وشردت وقتلت خلقا بعقول النساء وسلطة وقوة الرجال.

المؤلف

مارس ٢٠١٢

* * *

رصد

كيــد النســاء

رصد

كانت رصد جارية لأبى سعيد التسترى اليهودى، وكان يدرك ما هي عليه من حسن وبهاء يأسر القلوب، فسعى لاستثمارها أفضل استثمار بعرضها على الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، وبهذا يضرب كل أسراب العصافير بحجر واحد، فيقبض فيها أعلى ثمن ويضمن ببلوغها هذه المكانة اتصالا دائما بقصر الخلافة، أما إذا استطاعت البلوغ إلى ما هو أبعد من ذلك!! ففى كل خطوة تتقدمها خير لكليهما.

وكان للتسترى ما أراد حيث وقعت الجارية الجميلة الطموحة في قلب الخليفة فاشتراها وصارت فيما بعد أحب جواريه إليه، وزاد إيثاره لها حين أنجبت له ابنه المستنصر.

أصبحت شوكة التسترى سيفا بما بلغته رصد من مكانة كانت تدين بها إليه، وبالتالى لا ترد له طلبا ولا تتأخر عن مناصرته وهو ما جعله يتجرأ على كبار رجال الدولة، وقد وقع خلاف بينه وبين الوزير أبى على الحسن بن على الأنبارى الذي أسار إلى أبى تمر أخى التسترى لجنوحه هو الآخر وطغيانه لثقته أنه مسنود الظهر بجارية الخليفة وأم ولده، وكانت النتيجة أن عُزل ابن الأنبارى وصودرت أمواله وأودع السجن وبقى به حتى مات في سجنه.

ومات الخليفة ولم يكن ابنه المستنصر قد بلغ من العمر سوى سبع سنوات وبالتالى سوف يتولى الخلافة لتجد (رصد) نفسها وصية على ابنها الخليفة الصغير بعد أن كانت جارية، ولأنها تعلم أنها بلغت ما بلغته بالمكائد فقد اختارت نفس الطريق لتسير فيه وتدبر بما اقتنعت به أمور الدولة وهو الكيد.

اطمأن التسترى أن الأمور أصبحت كلها بيده فأخذ يبطش بالمسلمين ويقوى شوكة اليهود في مصر حتى أصبح الوزير الذي يعينه

المستنصر مجرد منصب شرفى بينما التسترى هو الذي يقوم على كل الأمور حتى أصبحت المكائد هي الصفة الشائعة لتدبير عظائم الأمور وصغارها في قصر الخلافة.

حين تولى الفلاحى أمور الوزارة ورأى كيف تدار أمور الدولة استخدم نفس السلاح للخلاص من التسترى واستغل أحداث الشغب بين الأتراك والمغاربة ووفاة الخادم عزيز الدولة ريحان فأشاع بين الناس أن التسترى هو الذي قتله بالسم فتربص له ثلاثة من الأتراك وهو متجه إلى قصر الخلافة كعادته في كل يوم وضربوه حتى مات.

غضبت رصد لمقتل أستاذها وسبب ما هي فيه من نعمة وطلبت من ابنها الخليفة أن ينتقم من قتلته لكنه لم يتمكن من الظفر بهم أو النيل منهم لأن التسترى كان مكروها والجميع ناقمون عليه، فادعت كل الطوائف مسئوليته عن قتله، ومما يدل على شدة الكراهية له محاولة الجميع نسب هذا الشرف إليهم، ليس هذا فقط بل إنهم مثلوا بجثته ومزقوه حتى تناثر جسده في الشواع، وجمع البعض ما وجدوه وأشعلوا فيه النار ثم أهالوا عليه التراب، لكن أهله استطاعوا شراء ما تبقى وأمكن جمعه من جسده ووضعوه في نعش وأحاطوه بالشموع وتركوه في مكان منعزل لكن النار أرادت أن تشارك الناس كراهيتهم للتسترى وتخبر أهله بمصيره فامتدت لتحرق ما جمعوه من جثمانه، ويعبر الشاعر عن هذه الكراهية قائلا:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ::: العز فيهم والمال عندهم
يا أهل مصر إنى قد نصحت لكم ::: غاية آمالهم وقد ملكوا
ومنهم المستشار والملك ::: تهودوا قد تهود الفلك

لم تتعظ رصد بما حدث للتسترى، بل اعتبرته تحديا شخصيا لها، ولم تعبأ بغضب الشعب وكراهيته للتسترى وحاشيته، بل أمرت ابنها الخليفة الصغير الضعيف بتعيين أخاه أبا نصر ديوانه الخاص وأن

يجعل لولديه النظر في بعض الدواوين، ولم تكتف بذلك!! بل عزلت الوزير الفلاحى وأمرت بالقبض عليه وإيداعه السجن، لكن يبدو أنها لم تجد أن كل هذه الإجراءات الدكتاتورية الظالمة كافية للرد على غضب الشعب وظلم اليهود فأمرت بتعذيب الوزير الفلاحى في السجن للانتقام منه.

ليس هذا فقط بل بلغ بها الجبروت أن تأمر بأن يقوم الفلاحى بحفر قبره ثم قتله بعد ذلك.

وجدت رصد في أبى محمد اليازدرى الشخص الضعيف الذي يمكن أن تحركه كالدمية وهو متفان في خدمتها وكان يعرف قدره جيدا، فيقوم للوزير والأمراء وكبار رجال الدولة لإحساسه بدونيته أمامهم، لكنها أرادت صنع دميتها كما تراءى لها فأمرته ألا يقوم لأحد مهما علا قدره وفعل ذلك لأنه لم يكن ليخالفها لكنه لم يكن يستطع تجاهل رب نعمته الذي أتى به إلى القصر وهو القائد عدة الدولة، وعلمت رصد بذلك فأمرته ألا يقوم لأحد مهما كان شأنه.

انتفخ البالون وأصبح يجلس في مجالس الخليفة ويتحدث باسمه حتى بلغ الأمر أن لقب نفسه بالمكين عمدة أمير المؤمنين.

عاد التسترى باسم جديد هو اليازردي ليعيد التاريخ نفسه دون أن يستفيد من الماضى وما حدث للتسترى، ففكر الوزير الجرجانى في التخلق من اليازردى وأخذ يكيد له في محاولة لإبعاده ولم يفكر في قتله خشية انتقام رصد، فأشار على الخليفة أن يقلده القضاء ليبعده عن ملازمة رصد، وكانت حجته في ذلك أن القضاء معطل وسيئ السمعة ولا يصلح لتقويمه سوى اليازردى، وبذلك يظهر وكأنه يقدره بطلب هذا المنصب الكبير له، وأنه يثق به لعظم المسئولية التي يكلف بها لكنه كان في الحقيقة يرى أن قربه من رصد هو الذي يدعم

موقفه ويقويه، وكان اليازردى يدرك ذلك ويرى أن وجوده في خدمة رصد وقربه منها أفضل من أى منصب حتى وإن كان منصب القضاء، ورغم أنه كان محموما لا يقدر على الحركة هرع إليها وأخبرها أن هذا المنصب ليس سوى محاولة لإبعاده عنها وحرمانه من خدمتها، واقتنعت رصد برأيه فردت المكيدة بأعظم منها، فأمرت بأن يتولى القضاء يومين ويبقى في خدمتها بقية أيام الأسبوع، وفوتت بهذا الفرصة على الوزير، فانحنى وقبل الأرض بين قدميها وانصرف شاكرا لها إنعامها عليه ببقائه في خدمتها بعد أن ضمن منصب القضاء، وضمانا لقربه من رصد في يومى القضاء عين ابنه مكانه في هذين اليومين ولم تكتف رصد بذلك بل أمرت بعزل الوزير والقبض عليه ثم نفته بعد ذلك إلى دمشق.

علت مكانة اليازردى - الدمية التي صنعتها رصد - حتى أصبح وزيرا بالإضافة إلى كونه قاضى القضاة والناظر على ديوان رصد، وطالت مدته وازداد جبروته فازداد أعداءه وكارهيه الذين كادوا له عند الخليفة وساعدهم في ذلك كبرياؤه وصلفه فعزله من كل مناصبه وأمره بالقبض عليه ومصادرة أمواله ونفيه إلى " تنيس " وفى المنفى دبر له الوزير الجرجانى من منفاه في دمشق لقتله والخلاص منه وتخليص البلاد من شره.

انصلحت الأحوال في مصر بعد استقرار الأمور بها بعد الخلاص من اليازردى حتى أن الرحالة الفارسى (ناصر خسرو) ذكر في كتابه (السفرنامة): " وكان أهل مدينة مصر في غنى عظيم، وكان الناس في غنى عظيم لا يخشون الجواسيس ولا الغمازين معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحدا ولا يطمع في مال أحد " وفى موضع آخر يقول: " ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس في فارس فإنى لا أستطيع أن أحدد

أموالهم أو أحصرها، أما الأمن الذي رأيته هناك فلم أره من قبل "، ويواصل: " بل وكان هناك من يملك من الغلة ما يمكنه من إطعام أهل مصر آنذاك ست سنوات كاملة ".

لكن السيدة رصد استكثرت الخير والنعمة التي تعيش فيها البلاد التي كانت تعود بلا شك عليها بالأموال والخيرات وبدلا من أن تعمل على زيادة هذا الرخاء فتثبت الأمن وتزيد من الإصلاحات وتحسن الخدمات، أخذت تشترى العبيد وتغدق عليهم الأموال ليكونوا قوة لها في مواجهة الأتراك التي كانت لا تخفى كراهيتها لهم وربما كانت تفكر في إبعادهم عن مواقع السلطة أو التخلص منهم.

أصبح كل عبد من الذين جلبتهم رصد يتمتع بسلطات جعلته يتصور نفسه أحد الولاة وبلغ الصدام بينهم وبين الأتراك حد الاشتباك المسلح وكان ذلك يروق رصد التي كانت تزكى هذه النار وتمد العبيد السودانيين بالمال والسلاح فكانوا في بعض الأوقات يتغلبون على الأتراك الذين ساروا إلى الخليفة يشتكون إليه ما تفعله أمه فحاول الإصلاح بين الطائفتين، وتمكن بمساعدة الوزير أبى الفرج بن المغربى من ذلك، لكن فيما يبدو أن الإصلاح أو الاتفاقات كانت ظاهرية بينما القلوب مغلقة على ما هي عليه من كراهية تشعلها رصد حتى تحول الأمر إلى حرب أهلية أنفقت فيها رصد مليونا دينار في تجهيز العبيد بالسلاح.

شعر ابن حمدان قائد الترك باستفحال الأمر وبالخطر الداهم الذي يشكله السودانيون ومن ورائهم رصد، فأصر ألا ينزل عن حصانه في حربه مع السودانيين إلا منتصرا أو مهزوما حتى ينهى هذه المأساة وبالفعل انتصر عليهم وقتل الكثيرين منهم.

استنزفت هذه الحروب الكثير من أموال الترك فتوجهوا إلى الخليفة

فأخذوا أمواله وأموال وزيره ولم يتركا لهما شيئا ولما لم يجدوا لديه أموالا في حين تمد أمه العبيد بالأموال لشراء السلاح، فأخذوا مقتنيات الخليفة من الجوهر والأحجار الكريمة، بل ومتاع بيت الخلافة حتى مقتنياته التي ورثها عن آبائه وأجداده، وباعها ليعطيهم ما يريدون من أموال وقودا للحرب الأهلية التي أزكتها رصدا بمكائدها، ولم تتوقف عن إمداد العبيد بالأموال لشراء السلاح حتى تمكنوا من هزيمة الترك وأجبروهم على الانسحاب إلى الصعيد (الجيزة).

لم يتقبل الأتراك الهزيمة واستطاعوا الحصول على ما قيمته مليون دينار هو ما تبقى لدى الخليفة من ممتلكات وباعوها لتعويض خسارتهم والتزود بالسلاح وضاعف بالتالى هيبة المستنصر الذي لم يعد يملك شيئا، وانتشر الرعب والنهب والخطف العلنى وعم الخراب وأغلق الناس دكاكينهم التي نهبت وضاعت تجارتهم، ومات الزرع في الأرض التي أصبحت جرداء لعدم زراعتها، أو الاهتمام بها بسبب خوف الناس وعدم خروجهم من بيوتهم حتى أن الناس من شدة جوعهم كانوا يأكلون القطط والكلاب التي وصل ثمن الواحد منها خمسة دنانير، ليس هذا فقط بل إنهم أكلوا الميتة وكانوا يخطفون الناس من الشوارع ويذبحونهم ويأكلونهم.

أما الخليفة الضعيف الذي تسببت أمه في كل ذلك بسبب ضعفه فلم يعد يملك حتى قوت يومه لدرجة أن ناصر الدولة كبير الترك أرسل إليه مرة (قاصر بنى حمدان) يطالبه بالأموال فوجده يجلس على حصير بغير فرش ولا أبهة وليس عنده من الخدم سوى ثلاثة وقد زال ما كان يعهده من شارة الملك وعظمة الخلافة، وخرج ناصر الدولة من عنده يبكى لحاله، وأخبر بذلك ناصرا لدولة فصار يرسل إليه في كل شهر مائة دينار، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل

حين ساءت أمور الخليفة تتصدق عليه في كل يوم بقعب من فتيت ولم يكن له قوت سواه مرة واحدة كل يوم وليلة حتى أجرى عليه ناصر الدولة تلك الدنانير المائة.

ولما زاد الفقر بالناس وساء الحال خرجت النساء ناشرات شعورهن يصحن الجوع.. الجوع فتسقط الواحدة منهن تلو الأخرى من الجوع والإعياء، وتموت في الوقت الذي يتدفق فيه النيل والأرض لا تجد من يزرعها بسبب ما أحدثته رصد من فتنة في البلاد واستمر الوضع على ذلك سبع سنوات بدءا من سنة ٤٥٧هـ وسميت بالشدة المستنصرية.

لكن ماذا كان مصير رصد وإلى أى مصير جرتها مكائدها؟

تمت مصادرة أموالها وقبض عليها لكنها تمكنت من الهرب إلى بغداد، وظل الخليفة الضعيف فقيرا وحيدا يترقب نهايته حتى أرسل لوالى عكا الذي جاء لنجدته، وبالفعل جاء بجيوشه وهزم الأتراك وقتل ناصر الدولة، ولكن بعد خراب البلاد وهلاك العباد.

* * *

هند بنت النعمان

كيـــد النســـاء

هند بنت النعمان

كانت هند بنت النعمان أجمل جميلات عصرها، وكانت أديبة فصيحة شاعرة، فلما وصفت للحجاج بن يوسف الثقفى أرسل إليها يخطبها وأنفق حتى يتزوجها أموالا طائلة، وحين تم له ذلك شرط لها مؤخر صداق مائتى ألف درهم، وذهب ليقيم معها في بلد أبيها (المعرة) ثم انتقل بها للإقامة في العراق.

كانت هند تشعر أن الحجاج ليس كفؤا لها ولا يستحقها، ووقفت ذات يوم أمام المرآة تنظر إلى نفسها وتنشد:

ما هند إلا مهرة عربية ::: سلسلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلا فلله درها ::: وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

ولعبت المصادفة دورها ليسمع الحجاج هذه الأبيات ويعرف رأى هند فيه حيث كان يعتزم دخول الغرفة فسمع إنشادها هذين البيتين فوقف بالباب ولم يدخل ثم انصرف بعد ذلك وحاول أن يدفع عن نفسه الإهانة بإرسال عبد الله بن طاهر إليها وأعطاه مائتى ألف درهم - مؤخر صداقها - وقال له: أيا أبا عبد الله - طلقها بكلمتين ولا تزد واعطها الدراهم.

فذهب إليها عبد الله بن طاهر وقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت.. فبت وهذه المائتا ألف درهم التي كانت له قِبَله.

فقالت له هند: اعلم يا بن طاهر.. أنا والله كنا فما حمدنا وبِنّا فما ندمنا وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف (الحجاج).

(وهكذا ردت الإهانة بأعظم منها - لكن ترى.. هل تكتفى هند بذلك؟!)

وصفت بعد ذلك لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأرسل إليها يخطبها، فقالت للرسول: قل لأمير المؤمنين - إن الوعاء ولغ الكلب فيه فلما قرأ كتابها ضحك وأرسل إليها: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا، فاغسلى الوعاء يحل الاستعمال.

فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم تستطع المخالفة لكنها أرادت أن تأثر لكرامتها التي لم تزل رغم كل ما فعلته أن الحجاج جرحها فأرسلت إلى أمير المؤمنين: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملى من المعرة إليك ويكون ماشيا حافيا بحلته التي كان فيها أولا.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك وأرسل إلى الحجاج وأمره بذلك، ولم يملك الحجاج إلا الامتثال لأمر أمير المؤمنين وأرسل بدوره إلى هند أن تتجهز للرحيل فتجهزت وسار الحجاج حتى وصل المعرة بلد هند فركبت في محمل الزفاف وركبت معها جاريتها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده وهو على الهيئة التي طلبت من الأمير أن يكون عليها إمعانا في إذلاله، وظلت تتمسخر عليه وتضحك هي وجاريتها الهيفاء، ثم طلبت منها أن ترفع طرف الهودج الذي تجلس فيه ففعلت الجارية فوقع بصرها على بصر الحجاج الذي يكاد ينضجر من الغيظ فضحكت من الحال التي أوصلته إليها فأنشأ يقول:

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة ::: تركتك فيها كالقباء المفرج

فردت عليه هند منشدة:

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت ::: بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع ::: إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تسمم بدن الحجاج بضحكها وعبثها حتى قربت من دار أمير المؤمنين فألقت بدينار على الأرض ونادت: يا جمال.. وقع

سقط منا درهم فارفعه إلينـا، فنظـر الحجـاج إلـى الأرض فلـم يجد إلا دنيـارا، فقال: إنمـا هو دينـار، فقالـت: الحمد لله لقد سقط منـا درهمـا فعوضنا الله بدينار، فلم يستطع الحجـاج أن يـرد جوابـا حتـى بلـغ بها بيت الخلافة وأدخلها علـى عبد الملك فتزوج بها وعاد الحجاج يضمد جراحه.

* * *

بياتريس

كيـــد النســـاء

بياتريس

المرأة التي قتل بكيدها سلطانين وملكا

بعد موت أبيه عام ١٥٧٣م تولى مولاى محمد المتوكل عرش المغرب بمدينة فاس دون أن يحظى ببيعة العلماء أو رضاء أسرته أو حتى محبة الشعب وهو ما دفع عمه مروان بن عبد الملك أن يهب لإقصائه عن العرش بعد توليه بشهور قليلة وساعدته تلك العوامل لتحقيق ذلك ونادى بنفسه سلطانا ولقب بالمعتصم.

هرب ابن أخيه إلى مدينة مراكش وتخلى عنه رجال حاشيته إلا بعض معاونيه وأسيرة أبيه البرتغالية (بياتريس) التي رفضت الحرية حين عرضها عليها وفضلت البقاء معه، ويبدو أن رفضها لم يكن حبا فيه، وإنما جزء من مكيدة تخطط لها جيدا.

بحث السلطان الطريد عمن يساعده على استرداد عرشه ولم يكن له من يستشيره سوى معشوقته بياتريس التي كانت لا تكف عن التفكير في كيفية استرداد ذلك العرش متظاهرة بأنها تحاول بذلك مساعدته والتخفيف عنه في حين أنها كانت تسعى من خلاله للانتقام من زوج خانها لم تكن تصرح قط باسمه هو (مروان بن عبد الملك) المغتصب الذي كان قد تزوجها في بلدها ثم هجرها قبل أن يأسرها المغاربة.

لم تتوقف بياتريس عن التفكير في هذا الموضوع والبحث عمن يساعد عشيقها على استرداد عرشه ورأت في ملك البرتغال (سبستيان) هدفها وأخبرت عشيقها بقدرتها على الوصول إلى الملك وإقناعه على استرجاع عرش سلطانها الطريد في مقابل إغرائه بضمان السيادة على السواحل المغربية وتوسيع رقعة مملكته بعد النصر وتمكنت من إقناع سلطانها الطريد باللجوء إلى البرتغال.

رتبت بياتريس للقاء ملك البرتغال الطامع في احتلال المغرب والسلطان الطريد الحالم باسترجاع عرشه لتنفذ مكيدتها وتحقق هدفها.

قام الملك بتجهيز جيشه وأعد العدة للحرب بجيش من المرتزقة الألمان والإيطاليين والإسبان مع الجنود البرتغاليين الذين انضم إليهم بعض الذين استطاع أن يضمهم السلطان الطريد عندما نزل الجيش البرتغالى بين طنجة والعرائش اللتين استولى عليهما الغزاة بعد قتال عنيف.

كان خبر الجيوش قد وصل إلى السلطان أبو مروان عبد الملك المعتصم فأعد عدته لمواجهة الغزاة من المرتزقة وجنود يدافعون عن أرضهم، ورأى المعتصم أن يضرب ضربة قاضية ينهى بها المعركة فكلف أخاه أبا العباس أحمد أن يجهز جيشا يجمع له ما يستطيع من رجال وعتاد وفعل ابن أخيه ذلك، فسار على رأس جيشه لملاقاة الغزاة وملكهم سبستيان وابن أخيه السلطان المعزول المرابطون في السهل الممتد حول مدينة (القصر الكبير) لكن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن، فقد مرض السلطان أبو مروان مرضا شديدا وهو في الطريق إليهم وأقعده المرض عن الحركة ومنعه من قيادة قواته بنفسه، فأمر أخاه بقيادة الجيش وأن يعد له مكانا يتابع منه سير المعركة وهو على فراش المرض.

نشر أحمد القوات المغربية في مواجهة الغزاة وفقا لانتشارهم ورسم خطة لمهاجمتهم والقضاء عليهم، وبالفعل كان هو البادئ بالقتال صابا نيران المدافع المغربية على جناحى العدو، ثم انطلق الفرسان إلى الميدان ودارت رحى المعركة وسالت الدماء فتقهقر الغزاة مدحورين تهرع خيولهم على غير هدى في السهل فطاردهم المغاربة الذين كان عددهم خمسين ألفا وهو نصف عدد الغزاة علاوة على

امتلاك الغزاة لستة وثلاثين مدفعا ضخما ووجود بضعة آلاف من الفرسان ضمن أفراد الجيش.

وانطلق المشاة بعد ذلك وتقارعت السيوف في قتال رهيب كان للمغاربة الغلبة فيه والسلطان يتابع المعركة بارتياح كبير لما يحققه جنوده من انتصارات وشعر أن النصر حليفهم لا محالة فأغمض عينيه التي أنهكها طول المتابعة مع المرض.

دخل القائد المنتصر أبو العباس أحمد على أخيه السلطان فوجده قد أغمض عينية إلى الأبد فأسدل ستائر الاستراحة وأمر أربعة من الحرس بألا يسمحوا لأحد بالدخول إلى السلطان لأنه يريد أن يستريح بعد طول الإجهاد.

انطلق القائد يحث جنوده على القتال والزحف خلف الأعداء لإلقائهم في مياه النهر، وهجم الجنود المغاربة على فلول الغزاة المندحرة وضربوا ضربتهم القاضية، فتشتت الأعداء لينال معظمهم مصيره فيقتل، بينما هرب الباقون الذين غرق معظمهم في النهر وكان معهم السلطان الهارب أبو عبد الله المتوكل الذي كان يحاول اجتياز النهر سباحة فغرق ولحقه حليفه الملك البرتغالى سبستيان الذي جرفه التيار، فغرق هو الآخر، أما السلطان مروان بن عبد الله فقد مات على فراشه بعد أن اطمأن انتصار جيشه.

لم يبق من القادة الثلاثة أحد فقد مات السلطان مروان وابن أخيه السلطان الطريد وملك البرتغال ولم يبق سوى (بياتريس) التي حاكت المكيدة لكنها لم تستطع مواجهة الموقف وفضلت أن تلقى بنفسها في المحيط لتتخلص من حياتها في حين كان زوجها السابق مروان يلاحقها للانتقام منها.

* * *

شجرة الدر

كيــد النســاء

شجرة الدر

كانت شجرة الدر جارية تركية أو أرمينية مشتراة للصالح أيوب وحظيت بمكانة عالية عنده فأعتقها وتزوجها وأنجبت له ولدا أسماه الخليل لكنه مات صغيرا.

في عهدها خرج الفرنجة من مصر بعد أسر مليكهم لويس السابع وأخلى سبيله بعد أن أدى الصليبيون الفدية عنه.

أثناء الحملة الصليبية على مصر التي رأسها ملك فرنسا كان يحكم مصر الملك الصالح أيوب وكانت رحى المعركة تدور في المنصورة، وداهمه المرض واشتدت وطأته وخشى الملك أن يموت قبل أن تنتهى المعركة ويتحقق النصر فتنهار الحالة النفسية للجنود وتقل عزيمتهم ويستغل الأعداء ذلك فعهد لولده (توران شاه) وأخذ العهود على ذلك وقام بالتوقيع على عشرة آلاف ورقة فارغة ليتم الاستعانة بها إذا حدثت الوفاة ويبدو الأمر وكأن الملك لا يزال على قيد الحياة يصدر الأوامر ويعطى التوجيهات.

وبالفعل مات الملك وأمكن إخفاء خبر موته عشرة أيام كانت شجرة الدر تدير فيها شؤون البلاد ولم يكن الأمر بجديد عليها حيث كانت تقوم بذلك في حياة السلطان، وكانت تخبر كل من يسأل عن السلطان أنه مريض ولا يمكن لأحد أن يقابله.

كان يشاركها تدبير الأمور الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، وأرسلت شجرة الدر في استدعاء توران شاه بأن السلطان سيحضر من دمشق كى يتسلم أمور السلطنة وحضر بالفعل وكان له دور كبير في حرب الصليبيين حيث جدد المصريون نشاطهم، وأنشأ أسطولا من السفن الخفيفة وتم نقلها إلى فروع النيل السفلى وأخذت

تعترض طريق السفن التي تجلب المؤن من دمياط إلى معسكر الصليبيين حتى تم الاستيلاء على ثمانين سفينة للصليبيين، وكانوا يتعرضون لخطر المجاعة وانتشرت الأمراض بينهم وتم النصر لتوران شاه وأسر لويس التاسع.

كانت العلاقة بين توران شاه وزوجة أبيه شجرة الدر سيئة، فقد كانت على ما يبدو تحاول الخلاص منه أو حتى إبعاده عن سدة الحكم وكان هو يعرف ذلك، لذا كان لا يثق في رجالها، وهذا ما دفعه للخلاص من حاشية القصر واستبدالهم برجال من خاصته حتى يتفرغ للمماليك الذين كانت تحيط نفسها بهم وتغدق عليهم ليكونوا في خدتها بعد أن انتصر على الصليبيين.

بعد نهاية الحرب طالبها بأموال أبيه وبما تحت يدها من الجواهر وبتسليم السلطة وهذا ما دفعه إلى توعد رجالها وتوعدها، ولم يكن يدرى أنه بذلك يسير إلى حتفه وأن كيدها سيكون أقوى من جنوده وقواته وقدراته كقائد للجيش الذي انتصر على الصليبيين.

أرسلت شجرة الدر إلى مماليك البحرية تخبرهم بما يضمر لهم توران شاه وتطلب منهم حمايتها واختارت فارس الدين أقطاى أحد كبار المماليك الذين تنكر لهم توران شاه بعد أن كان قد وعده أن يؤمره ولم يف بوعده، وهو ما دفعه إلى كراهيته والحنق عليه، ولم تكتف بذلك بل استمرت في البحث عن أعدائه والتآمر معهم للخلاص منه وبالفعل اتفقوا على قتله.

ذات يوم كان توران شاه يجلس بفارسكور كعادته يستقبل زائريه فتقدم إليه واحد من البحرية هو بيبرس البندقدارى الذي صار إليه ملك مصر بعد ذلك وضربه بسيفه فقتله بيده فقطع أصابعه وهرب إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور، فطاردوه ودخلوا وراءه

البرج بسيوفهم ففر منهم إلى أعلى البرج، وأغلق الباب خلفه فخرجوا وأغلقوا باب البرج من الخارج وأضرموا فيه النار ورموه بالنشاب.

خشى توران شاه أن يحترق داخل البرج المشتعل فألقى بنفسه من فوق البرج والنار مشتعلة بملابسه وتعلق بأذيال الفارس أقطاى واستجار به فلم يجره، فألقى بنفسه في البحر وهو يصرخ: ما أريد ملكا.. دعونى أرجع إلى الحصن.. يا مسلمون ما فيكم من يجيرنى ويصطنعنى (يشغلنى عنده) لكنهم بدلا من أن ينقذوه ويجيروه سبحوا خلفه وقطعوه بالسيوف ثم سحبوه إلى الشاطئ وتركوه عليه ثلاثة أيام منتفخا لا يقدر أحد على حمله ودفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة، وهكذا كانت مدة حكمه واحد وسبعين يوما.

بعد موته اجتمع كبار مماليك البحرية وأعيان الدولة واتفقوا على إقامة شجرة الدر سلطانة على مصر - لتجنى ثمن مكيدتها - ونصبوا عز الدين أيبك قائدا عاما (أتابكا) للعساكر ووصيا على العرش.

لم يقبل الشعب المصرى أن تنصب امرأة سلطانه عليه، وقامت المظاهرات وحدثت اضطرابات عديدة في القاهرة، وأغلقت المدينة حتى لا تتسرب أخبار الاضطرابات والمظاهرات إلى خارجها وتنتشر في كل البلاد، وكان رجال الدين وراء تلك الاضطرابات المعارضة للسلطانة التي كانت تعتقد أن مماليك البحرية بإمكانهم حمايتها فأخذت تغدق عليهم وتقرب الخاصة والعامة في محاولة منها للحفاظ على الحكم.

علم الخليفة المستعصم العباسى بتولى شجرة الدر شؤون البلاد فأرسل إليهم خطابا يعلن فيه رفضه تولى امرأة شؤون البلاد، ويتساءل إن لم يكن هناك من الرجال من هو جدير بتولى الأمر فعلم

المماليك بخطئهم ولم تجد شجرة الدر حلا بعد رفض الشعب والخليفة وسيلة لتولى شئون البلاد دون أن تكون في الواجهة سوى أن تتزوج من عز الدين أيبك وبالفعل تم الزواج وتنازلت له عن العرش بعد توليها دفة الحكم سلطانة على البلاد ثمانين يوما.

استوعب عز الدين أيبك الدرس مما حدث لتوران شاه واستعانة شجرة الدر بمماليك البحرية الذين يساندونها وخشى أن يكون مصيره كذلك، فأنشأ فرقة من المماليك أسماهم (المُعزِيَّة) ليكونوا ضد مماليك البحرية الذين أخرجهم من سكناتهم، وقتل قائدهم فارس الدين أقطاى وظل يطاردهم للخلاص منهم حتى هربوا إلى ملوك بنى أيوب في الشام.

كانت شجرة الدر لا تزال تعتقد أنها السلطانة وأن أيبك ليس إلا صورة تقف خلفها، وأن تنازلها عن العرش تنازلا صوريا وقد دفعها ذلك إلى إجبار أيبك على هجر زوجته الأولى أم ولده ومنعه من زيارتها، لكن أيبك في المقابل كان يرفض سيطرتها وتسلطها وكان يسوؤه استيلاءها عليه وحاول مرارا أن يعزلها عن الحكم لكنها كانت ترفض الانزواء وربما ندمت لذلك على تنازلها عن الحكم وقد دفعها ذلك للخلاص منه.

كان أيبك يفكر هو الآخر في نفس الأمر وأعد العدة له بالخلاص من مماليك البحرية ليجردها من سلاحها وبدأ في التحرر منها كمرحلة أولى بالزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل ليدعم نفسه خارجيا لكن يبدو أن ذلك كان بداية النهاية لأن جلب ضرة لامرأة مثل شجرة الدر كان لعبا بالنار.

تزعمت حركة معارضة له في الداخل والخارج وساندها بعض مماليك البحرية الذين بقوا في مصر وفاء لها في رفض هذا الزواج،

ولم تثمر حركة المعارضة فقبض عليهم أيبك وأودعهم السجن، فعادت لاستخدام سلاحها القديم (الكيد) للانتقام من أيبك.

أرسلت إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة مع أحد المماليك العزيزية تخبره فيه أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه مصر ولكن الناصر خشى أن يكون الأمر خدعة ولم يستجب لطلبها.

أرسل بدر الدين لؤلؤ الذي نمى إليه سر تلك المفاوضات إلى أيبك يحذره مما أزمعت عليه شجرة الدر وأنها تود أن تتواطأ مع الملك الناصر عليه، وبهذا اتضحت النوايا فهى تريد أن تتخلص من أيبك وهو يريد الخلاص منها والفوز للأسبق في تنفيذ مخططه.

لم يعد المقام مع شجرة الدر أمرا مأمونا وهذا ما دفع عز الدين أيبك للإقامة (بمناظر اللوق) بضعة أيام لتدبير ما ينبغى أن يكون.

أرسلت شجرة الدر إلى أيبك تدعوه إليها متلطفة في ذلك برسالة رقيقة ضمنتها أكذب مشاعرها وأعزب كلماتها ليلعب كيد النساء دوره وانطلت الخدعة على أيبك، صدق معسول كلامها وهرع إلى القصر السلطانى دون أن يأخذ حذره ربما كان يأمل في إصلاح ما بينهما أو الاستسلام لها والعيش في سلام بدلا من القلق أو ربما أراد أن يأخذ بذلك فسحة من الوقت لتدبير مكيدته ويتمكن من الخلاص منها، لكنها كانت قد أعدت كل شئ للخلاص منه في تلك الليلة.

خمسة من المماليك كانوا في انتظاره بالحمام أغلقوه عليه وقتلوه وهو مجرد من سلاحه وأعوانه ويقال: إنها أدخلت مملوكا قويا إلى الحمام لينتظره عند دخوله ولكنه لكمه لكمة قوية طرحته أرضا ثم انهالت عليه هي والجوارى بالقباقيب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

لم يكن موت أيبك هو نهاية المكيدة فهى تود أن تكون مقاليد الأمور بيدها وتخشى أن ينتقم منها أعوانه لذا فقد أرسلت إلى الأمير عز

الـدين أيبـك الحلبـى الكبيـر بخـاتم السـلطنة تطلـب منـه أن يتولاهـا وتتزوجه وأشاعت أن السلطان قد مات فجأة - لكن الحلبى الكبير لـم يجسر على ذلك.

انتشر خبر قتل أيبك بين مماليكه وتمكنوا من إجبار الخدم والجوارى على الاعتراف بالحقيقة وقبضوا على شجرة الدر وأرادوا قتلها ولكن المماليك الصالحية رفضوا ذلك ونقلت إلى البرج الأحمر.

تولى المنصور على ابن السلطان أيبك أمور السلطنة وحُملت شجرة الدر إلـى أمـه فـي يوم الجمعة ليقتلها الجوارى بنفس الطريقة التـي قتلت بها أيبك (بالقباقيب) لتشرب من نفس كـأس مكيدتها من امرأة مثلها - حتـى ماتـت فـي اليـوم الثـانى - السبت - وخلعوا عنها ثيابها كاملة وألقوها من سور القلعة عارية حتـى أنتنـت ثـم حملت فـي قفة ودفنت في قبرها الذي بنتته بنفسها.

ويحكى المقريزى أنها حين علمت أنه قد أحيط بها وضعت كثيرا من جواهرها من اللؤلؤ وغيره في الهون وكسرته.

* * *

روكسلانه

كيـــد النســـاء

روكسلانه

جعلت المصريين يأكلون لحوم البشر وانطلقت ثورة الجياع بسببها، فتاة جميلة اختطفها النخاسون من بلاد القوقاز، كانت ابنة أحد رجال الدين، ولإحساسها بمكانتها وثقتها في جمالها لم ترض بالحياة كجارية، ولذا كان لابد من استخدام قدراتها الإغرائية وخفة روحها للسيطرة على السلطان سليمان القانونى الطاعن في السن لتجعله يهيم بها، وبالفعل شُغف بها السلطان العجوز وتزوجها، وحاول جاهدا أن يستعيد شبابه أو يوهمها بذلك.

بسبب كبر سنه تخلى السلطان القانونى عن قيادة الجيوش وترك ذلك الأمر لابنه مصطفى وهو من زوجة أخرى، وهذا يعنى أنه في المستقبل سوف يصبح السلطان ويعصف بطموحاتها التي لم يكن لها حدود ودفعها ذلك إلى التفكير في إبعاده ولم يكن يتيسر لها ذلك إلا بمكيدة يتحتم عليها أن تخطط لها جيدا.

رأت روكسلانة أن إفساد العلاقة بين السلطان وزوجته - أم ولى العهد - يمكن أن يكون نقطة الانطلاق لمكيدتها وارتكزت في ذلك على تشويه ما يحب السلطان والاعتداء على هيبته وهي أمور تتجاوز الخطوط الحمراء.

كانت خطتها التحرش بغريمتها لتشتبك معها بالأيدى وتحدث بها بعض الإصابات والخدوش، وبالفعل افتعلت روكسلانة مشكلة مع زوجة السلطان الأولى وأخذت تعتدى عليها بألفاظ نابية أخرجت السلطانة من هدوئها لتبلغ قمة ثورتها واشتبكت معها لكنها ظلت تستخدم لسانها فقط وهو السلاح الذي لم تستطع على مجاراتها فيه غريمتها فاستخدمت يدها وهذا ما كانت تريده روكسلانة فتركتها تحدث بها العديد من الإصابات وخرجت إلى السلطان وهي في هذه

الحالة - شعر منكوش ووجه ملئ بالخدوش والكدمات ودموع كالسيل المنهمر مؤكدة أنها كانت ترفض الخروج عليه بهذه الحالة التي جعلتها عليها غريمتها لتبدو أمامه البريئة المعتدى عليها والتى تحرص في الوقت نفسه على ألا تضايق السلطان حتى بالنظر إليها وهي على هذه ا لحالة أو ببلوغ هذه المشكلات العائلية إليه لتنجح بذلك المرحلة الأولى من الخطة (المكيدة) وينقل بعد ذلك الأمير مصطفى ابن غريمتها بعيدا عن العاصمة.

بدأت المرحلة الثانية من الخطة والتى كانت تهدف من خلالها إلى إقصاء رجال السلطان ومعهم غريمتها ثم تؤتى هي برجالها، وكانت البداية عزل الصدر الأعظم زوج شقيقة السلطان ثم اغتياله بعد ذلك ثم تقرب رستم باشا ليكون عونا لها وحتى تضمن سيطرتها عليه زوجته " محرمه " إحدى بناتها الجميلات ليكون مؤهلا بعد ذلك لمنصب الصدر الأعظم.

وجاءت المرحلة الثالثة من المكيدة وهي إقناع السلطان بأن ابنه مصطفى يطالب بتنحيته بسبب كبره في السن لعدم قيادته للجيوش وخوض المعارك بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية وهي الحرب التي دبرتها روكسلانة نفسها لتكمل بها مكيدتها وأكل السلطان الطعم واستطاعت روكسلانة أن تقنعه بخديعتها وملأت قلبه بالضغينة لابنه وولى عهده فقتله بفتوى زائفة من شيخ الإسلام أبى السعود الذي خدعته روكسلانة أيضا حين سألوه عن حكم عبد عهد إليه سيده التاجر الثرى الإشراف على أمواله فدمر تجارته وتآمر على حياته وحياة زوجته وأولاده فكان حكم المفتى أن هذا العبد يستحق الإعدام، وهكذا قتل ابنه غدرا ثلاثة من الجلادين أمام عينيه.

انفجرت بعد ذلك شرارة الحرب الأهلية بعد رفض الإنكشارية حكم سليم وانقسمت البلاد بين سليم ومؤيدى أخيه أبى اليزيد وماتت روكسلانة قبل

أن تتحقق أهدافها، ورغم موتها لم تكن مكائدها قد بطل مفعولها فالنار كانت لا تزال متأججة في قلب السلطان العجوز فجهز وفاء لذكراها جيشا - رغم شيخوخته لمحاربة ابنه أبى اليزيد وهزمه عام ١٥٥٩م وذبحه هو وأولاده الخمسة وولى ابنه سليم عرش البلاد ليحقق أمل روكسلانة.

* * *

نورجيهان

كيـــد النســـاء

نورجيهان

كان اسمها قبل أن تتزوج السلطان (مهر النساء) وكانت جيهانكيز خان (المظفر بالله سلطان المغول المسلمين بالهند وعاصمتها آنذاك (أمرا)، وكانت زوجة صائد الأسد) والى السلطان على البنجاب، وكان فاسدا اتسم حكمه بالرشوة والفساد حتى أمره إلى السلطان الذي ذهب بنفسه لتقصى الأمور ومعرفة حقيقة ما يقال عن الوالى المرتشى واستخدمت مهر النساء جمالها لتحتال على السلطان ويتجنب زوجها نقمته ونجحت في ذلك، وعاد السلطان دون أن يفعل شيئا، لكن الفساد لم يتوقف فأرسل السلطان قائده لإحضار الوالى الفاسد ولو بالقوة، وشعر الوالى بما ينتظره فغافل القائد وضربه ضربة أودت بحياته وهو ما جعل رجاله يقتلونه ويقعطون رأسه ويحضروها إلى السلطان الذي كانت سهام كيوبيد قد أصابت قلبه وعشق زوجة الوالى (مهر النساء) وكانت هي قد سعت لذلك لكنها أن تلبى السلكان حين طلبها لتشعل نيران الحب في قلبه، بعد موت زوجها طلبها السلطان لتكون زوجة له، ولأنها كانت تعلم موقعها في قلبه طلبت منه أن يطلق زوجته أم أولاده كشرط للزواج منه لأنها لا تقبل أن تكون من حريم القصر، ورضخ السلطان العاشق لطلب الأرملة الجميلة وأعلن طلاق السلطانة أم الأولاد ولم تكتف بذلك بل طلبت أن تكون هي صاحبة الأمر والنهى في السلطنة، ووافق السلطان وتزوجها وأسماها (نور جيهان) أى (نور الدنيا) ووافق على طلباتها.

وتم الزواج وأصبحت هي التي تحرك كل شيء في القصر، إما بالأمر المباشر أو بالحيلة والمكيدة والانتقام إذا لزم الأمر.

عشق (شاهجان) أصغر أبناء السلطان ابنة أخ السلطانة (نور جيهان)

وكان اسمها (أرجمند) وكانت السلطانة تعلم ذلك وكان السلطان قد قرر أن ولاية العهد ستكون لأول من ينجب ولدا من أبنائه وبالتالى إذا تزوج ابنه الأصغر من ابنة أخيها وأنجبت ولدا سيكون هو وليا للعهد ويؤول الملك مستقبلا لأخيها وابنته في حين أنها كانت تفكر في غير ذلك، وبالتالى لابد لنورجيهان أن تدبر أمرها بمكيدة تفسد بها هذا الأمر وتغير مجرى الأمور.

كان التخطيط أن يتزوج الابن الأكبر للسلطان من ابنة نور جيهان لينجبا أولا من يرث العرش ولذا لابد من منع زواج الابن الأصغر أو حتى تأجيله وبدأت تخطط إما لإبعاد شاهجهان أو التخلص منه حتى لا يتزوج (أرجمند) ابنة أخيها.

كان (شاهجهان) في معارك مع الوثنيين وكانت أخبار انتصاراته تسبقه إلى القصر وكلما مر الوقت تزداد (أرجمند) شوقا وتزداد عمتها حدة في تدبير مكائدها.

لم تصل نور جيهان إلى حل في وجود (شاهجهان) فسعت إلى تأجيل عودته كسبا للوقت ولذا طلبت من السلطان أن يرسله لمحاربة الهنادكة في الدكن على أمل الخلاص منه واستجاب السلطان لرأيها فطلبت - لتأكيد الخلاص منه - من أخيها رئيس التشريفات أن يدفع ببعض القتلة للخلاص منه إن نجا من المعركة.

خسرت نورجيهان تلك الجولة بانتصار شاهجهان في المعركة وعودته التي سعد بها الجميع إلا هي فقد أرقها هذا النصر الذي أضاف إليه مجدا ساقته هي إليه بنفسها حين أتت الرياح بما لا تشتهى السفن.

بدأت تفكر في مكيدة جديدة لإبعاده تبدو على أنها مكافأة فطلبت من السلطان أن يعيده إلى (الدكن) نائبا عن السلطان وشعرت (أرجمند)

بأسى شديد حيث اقتنع السلطان برأى عمتها.

عاد (شاهجهان) إلى القصر والتقى حبيبته (أرجمند) وأخبرته بما تدبره (نورجيهان) وبموافقة السلطان على رأيها فأخبره أنه سوف يرفض إنعام السلطان عليه من أجل البقاء والزواج منها لكنها رفضت التضحية ولم تشجعه على مخالفة أمر أبيه السلطان، وأمام إصرارها أخبرها أنه من الممكن أن يقبل العودة بشرط.

انزعجت (أرجمند) من لهجة حبيبها وقالت له:

- أتشرط على السلطان؟

ويبدو أن السلطان كان بالقرب منهما وسمع حوارهما فكان سؤاله لابنه أسرع من جوابه على حبيته:

- وما شرط يا شاهجهان؟

كان ذلك مفاجأة عظيمة لهما أوشكت أن تربكهما، لكن الابن المنتصر تماسك وقال لوالده:

- أريد أن أكمل دينى يا مولاى.

فضحك السلطان وقال لابنه مداعبا:

- لقد وقعت في الحب إذن؟!! ومن هي سعيدة الحظ هذه؟ فأجابه وهو ينظر إلى حبيبته أرجمند:

- ها هي أمامك يا مولاى (أرجمند) ابنة رئيس التشريفات التي أعتقد أننى لم أجد زوجة أفضل منها تعيننى على البعد وتهبنى السعادة مثلها.

فرد السلطان ضاحكا:

- نعم الاختيار وأنا قبلت شرطك.

طار الحبيبان من السعادة بعد موافقة السلطان وبدءا من لحظتها

التفكير والاستعداد للزفاف.

أما السلطانة فقد جن جنونها حين علمت واستدعت أخاها وأخبرته برغبتها ألا يتم هذا الزواج وطلبت منه أن يفعل أى شيء لمنعه، وبلغ الأمر حد التهديد، لكنه رفض أوامرها وأخبرها أنه لا يستطيع أن يكسر قلب ابنته ويحرمها ممن تحب، فصرخت في وجهه:

– وماذا عن ابنتى أنا التي قتل رجال السلطان أباها، ولن يعوضها عن ذلك إلا أن يكون زوجها (شهريار) وليا للعهد.

وأخذت تذكره أنها هي التي جعلته في المكان الذي هو فيه الآن وأنه طالما خطط معها للخلاص من شاهجهان ليتولى شهريار ولاية العهد.

فرد عليها بأن ذلك كان قبل أن يعلم أن ابنته تحبه وهو يحبها ويرغب في الزواج منها، فهددته بإبلاغ السلطان بذلك إن هو رفض أن يتعاون معها لوقف هذا الزواج وسوف تخبره وتخبر السلطان أنه دبر لقتله وتقدم الأدلة على ذلك.

خشى أخوها لما يعرفه عنها وما يمكن أن تفعله إذا أرادت شيئا وأصرت عليه ووقع الرجل في حيرة بين تحقيق سعادة ابنته بتحقيق حلمها في الزواج من (شاهجهان) وما قد يترتب على ذلك من تحد لأخيه قد يكلفه أو يكلف ابنته حياتهما أو الرضوخ لها وإيثار السلامة لكنه لم يستطع الوصول إلى قرار فأخبر ابنته بما حدث ونصحها بأن تحاول الابتعاد عن شاهجيهان حتى لا تتعرض لانتقام عمتها السلطانة.

رفضت أرجمند التهديد وقبلت التحدى ليخرج الأب حائرا لا يدرى ماذا يفعل وماذا يقول للسلطانة التي تنتظر رده، لكنها لم تكن تنتظر الرد بل فكرت على الفور في مكيدة جديدة كانت بمثابة خطة بديلة.

كان برويز الابن الأوسط للسلطان يحب " أرجمند " ورأت في هذا الحب بغيتها لتنسج خيوط المكيدة حيث أخذت تحرضه أن أخاه الأصغر سوف يتزوج الفتاة التي يحبها وتنجب له الولد ليكون وليا للعهد وتخسر أنت كل شيء ولم تكتف بذلك بل بثت سمومها أيضا في رأس الابن الأكبر شهريار بأنه هو الأكبر ورغم ذلك فإن زواج شاهجيهان من أرجمند سوف يضيع عليه كل الفرص ولن ينال شئ.

تمكن الحقد من قلب الابن الأوسط " برويز " الذي أقسم أمامها ألا يجعل أخاه يهنأ بأرجمند، فعاجلته نورجيهان.

– ولماذا لا تفعلها الآن وسوف يساعدك (أخى) آصف خان أب (أرخمند).

فرد عليها بأن أباها لم يعد يفضله أو أنه لن يقبله بعد أن طلبها شاهجهان، فردت بلهجة الواثق:

– بل سيقبل طلبك.

في تلك اللحظة يخرج آصف خان لخبر أخته السلطانة برفض ابنته، فصرخت السلطانة في وجهه:

– لقد عجزت معها وأنت أبوها.. أى فتاة هذه التي تعصى أوامر أبيها!!

– آصف خان: أرجمند لم تعد طفلة وهي تعرف مصلحتها جيدا وتعى تصرفاتها.

السلطانة: حقا لم تعد أرجمند طفلة لكن يبدو أنك أنت الطفل يا آصف وإذا كنت قد عجزت معها ولم تستطع ردعها فأنا لن أعجز وأعرف أردها عن ما في عقلها لتطيع أوامرى.

تزوج " شاهجهان " من " أرجمند " وأسماها " ممتاز محل " ورحل

بها إلى " الدكن " نائبا للسلطان ليقضيا أيامهما في سعادة غامرة كانت فيها زوجة مثالية محبة لزوجها حريصة على سعادته وكان هو زوجا حنونا وانعكس هذا الحب على شعب الدكن فعاش في سلام، واستقرت الأمور وخلال خمس سنوات أنجبا ولدين وأعلن السلطان ولاية العهد لشاهجهان الذي أحبه شعب الدكن لأنه كان عادلا محبا لشعبه يحكم بما أمر به الإسلام من سماحة وعدل وكانت زوجته خير معين له على حب شعبه والمساواة بين أفراده.

ظن الزوجان السعيدان أن حياتهما سوف تستمر على ذلك خاصة الزوجة الوفية ممتاز محل التي شعرت بالاطمئنان ببعدها عن عمتها " نور جيهان " لكن النار المستعلة في قلب السلطانة لم تطفئها السنين، بل زادت لهيبا بعد إعلان السلطان ولاية العهد " لشاهجيهان " وسعت إلى تدبير مكيدة تدمر بها حياة الزوجين السعيدين أو الخلاص منهما ومن أولادهما.

دبرت السلطانة مكيدتها مع " برويز " الابن الأوسط للسلطان وطلبت منه أن يرسل رسولا إلى " ممتاز محل " يخبرها أن أباها قد أصيب في القتال ويريد أن يراها وأنه على وشك الموت، وفعل الرسول ذلك ومثل دوره جيدا حتى أقنع الزوجين بالأمر فنهره شاهجهان في غضب وطرده، لكن الرسول طلب من الأمير أن ينتظر ليصحبها إلى أقرب الطرق.

انطلق الرسول الذي كان أحد أطراف المكيدة - بالأميرة وحارسها واستطاع الرسول أن يرشى الحارس في الطريق بعد أن أقنعه أن والد الأميرة ليس مصابا وأن الأمر لا يزيد عن كونه خدعة لتتمكن الأمير من لقاء عشيقها " برويز " أخ ولى العهد، وكانت النقود التي أعطيت له - على أنها من الأميرة - كافية لإقناعه.

في الوقت ذاته كانت " نورجيهان " تكمل فصول مكيدتها حيث أقنعت السلطان أن يرسل " شاهجهان " لمطاردة الأعداء في قندهار ودبرت مع أخيه " شهريار " أن يقتله رجاله لتؤول إليه ولاية العهد بعد ذلك، أما " برويز " فإن الجو سيخلو له ليمتلك " ممتاز محل " التي أحبها.

حين وصلت " ممتاز محل " إلى القصر هرعت تبحث عن أبيها أو عمن يطمئنها عليه فوجدت أمامها " برويز " فسألته عن صحة أبيها وعن إصابته لكنه رد عليها بهدوء ماكر:

- إن الإصابة في قلبي أنا.

وحاول أن يحضنها ويقبلها بالقوة، لكنها نهرته وابتعدت عنه وذكرته بأنها زوجة أخيه، لكنه لم يرتدع بل تمادى في محاولته في احتضانها وتقبيلها بالقوة ويحدثها عن حبه لها، لكنها كانت تحاول جاهدة الإفلات منه وتتوعدهم بإبلاغ أخيه بذلك، فرد عليها بتبجح وصفاقة:

- إنه سيعلم أننا متحابان.

في هذا الوقت كان الرسول قد أحضر الحارس ليرى ذلك المشهد من بعيد حتى لا يستمع إلى الحوار ويقتنع بأن الأمير قد أتت بالفعل للقاء عشيقها.

لم يتوقف " برويز " عن محاولاته الاعتداء عليها رغم توعدها له بإبلاغ أخيه فأخبرها أنه ذهب إلى نهايته وأنه لن يرجع.

- لقد ذهب إلى قندهار ليحارب هناك بأمر السلطان بعد أن دبرت ذلك نورجيهان ولن يرجع بعد اليوم.

أخرست الدهشة " ممتاز محل " حين علمت وأدركت حجم المكيدة التي دبرتها " نورجيهان " لتدمير حياتها والخلاص من زوجها، وقبل أن تفيق من دهشتها كانت السلطانة السامة تقترب منها وتتظاهر

بالدهشة منكرة وجودها مع " برويز " في هذا الركن البعيد من الحديقة وسألتها في استنكار:

- أميرة الدكن في أكرا ولا أعرف!
- ممتاز محل: بلغنى أن أبى مصاب فأتيت لرؤيته.

فردت عليها بسخرية:

- أصف خان في مهمة ببلاد الأفغان وهو بخير وصحة جيدة.

ذهلت " ممتاز محل " مما سمعت وسألتها في حيرة:

- والرسول الذي أتى ليخبرنى بإصابته في الحرب؟

فردت عليها وهي تنقل بصرها بين " برويز " وبينها لتؤكد لها اتهاماتها:

- بل أنت التي احتلت على زوجك للقاء عشيقك أيتها الخائنة وسوف أخبر زوجك بذلك.

بعد أن رأى الحارس ما أرادوا أن يراه أعادوه مع الرسول إلى شاهجيهان بدون الأميرة لإكمال فصول المؤامرة وحين سألهما عن الأميرة رفضا الإجابة - فالرسول يعرف دوره ويتقنه جيدا والحارس تم إقناعه بما أرادوا - وحين ألح الأمير في السؤال طلبا إخلاء القاعة للحديث مع الأمير بمفرده ولبى الأمير طلبهما وجلس يستمع إليهما مما لقناه من اتهامات " للممتاز محل " والأمير غير مصدق، ولم يتمالك الزوج العاشق لزوجته التي لا يشك في براءتها من هول الصدمة إلا الإطاحة برأسيهما وتوعدهما حين عودتها.

عادت " ممتاز محل " مسرعة إلى " الدكن " لتجد زوجها وأولادها في لباس الحرب فألقت بنفسها تحت قدمى زوجها الذي فوجئ بحضورها وجرد سيفه من غمده وهو يصرخ فيها:

- كيف جرؤت على ذلك يا خائنة؟

فتعلقت في ساقيه وهي تستعطفه بعينين باكيتين أن يسمعها ولا ينخدع ولسانها نطق من العزة:

- اقتلني إن كنت قد صدقتهم.

وأعاد الزوج المحب الواثق من براءة زوجته سيفه إلى غمده وأحاط أبناءه بذراعيه وهو يقول:

- إن سيفي أشرف من أن يلوثه دم خائنة.

أمر " شاهجهان " رجاله أن يأخذوها إلى السجن وتمالكت الزوجة المحبة والتمست للزوج العاشق الأعذار فيما يفعل لأنها كانت تدرك حجم المكيدة التي دبرتها نورجيهان وأثرها عليه وذهبت معهم إلى السجن في عزة وهي تخاطب زوجها في أسى:

- افعل بي ما تشاء يا شاهجهان لكن لا تذهب إلى قندهار لأن الموت ينتظرك هناك والخونة الذين أوقعوا بي وسعوا إلى تدمير حياتنا ينتظرونك هناك لقتلك غدرا.

عاد " آصف خان " من المهمة التي كان قد ذهب إليها في بلاد الأفغان وعلم بما حدث فاندفع إلى أخته السلطانة ثائرا:

- فعلتها يا نور جيهان!!

فردت عليه باستخفاف وسخرية:

- لم أفعل شيئا.. ابنتك هي التي لم تحافظ على شرف زوجها.

- آصف خان ثائرا: هل يصل الأمر إلى تلويث سمعتها.

- نورجيهان بنبرة سخرية وتحد وزهو بالانتصار: احصد ما زرعت يا آصف خان فأنت الذي خالفتني وشجعت ابنتك على ذلك ولابد أن تنالا عقابي.

- آصف خان: سوف أنتقم منك أيتها الحية الرقطاء قريبا، لكنى ذاهب الآن لحماية ابنتى وإبلاغ شاهجهان بحقيقة مكيدتك.

واندفع آصف خان خارجا وهي من خلفه تحاول أن تمنعه لولا دخول السلطان عليها ومعه ولديه شهريار وبرويز، فسألها السلطان عن سبب ثورة أخيها وخروجه مندفعا هكذا، فردت متظاهرة بالأسى:

- لا أجرؤ أن أخبر جلالة السلطان بالسبب.

لتخفى علمها أن بقية أضلاع مثلث الشر قد أخبره لتكتمل المكيدة، لكن السلطان أخبرها أنه يعلم ما تحاول أن تخفيه، وقال شهريار متظاهرا بالاستنكار:

- والأدهى أنه يمتنع عن إرسال إمدادات من رجاله للعون والمساعدة.

وتأكيدا للمؤامرة كان قد أحضر أحد المرتشين الذي قدمه للسلطان قائلا:

- وهذا قائدك " مهابت خان " يخبرك بما حدث.

ودخل المرتشى الخائن ليقول وهو ينحنى أمام السلطان:

- هي الحقيقة يا مولاى.

وثار السلطان، وصرخ غاضبا:

- والله لا أدعك يا شاهجهان وسوف تنال جزاء عصيانك.

وانتهزت نورجيهان ثورة السلطان وغضبه على شاهجهان فقالت وهي تخفى فرحتها بنجاح مكيدتها وانتصارها:

- أرسل ولك شهريار إلى قندهار على رأس حملة واجعل ولايته للعهد مكافأة لما يحققه من انتصار.

فكر السلطان قليلا ثم قال:

– هو ما رأيت يا نور جيهان.

لكنها لم تكتف بذلك وتريد أن تكافئ برويز أيضا على تضامنه معها في مكيدتها وتضمن في الوقت نفسه القضاء على شاهجهان، فواصلت حديثها منتهزة ثورة السلطان وغياب عقله وانصياعه لها:

– وأعتقد أن برويز هو خير من يقود الحملة للقضاء على مؤامرة شاهجهان وعصيانه.

وافق السلطان المخدوع على ذلك أيضا وغادر القاعة وهي من خلفه ومن خلفها زوج ابنتها شهريار في حين وقف برويز بحادث صديقه الخائن المرتشى " مهابت خان " بصوت خافت:

– أرأيت ما تدبره السلطانة، لينال زوج ابنتها ولاية العهد!

ورد القائد الطامع " مهابت خان " :

– والله لن ينالها شهريار فأنت الأحق بولاية العهد يا برويز، وأعتقد أن زوجة أبيك تريد أن ترسلك إلى الدكن لقتل أخيك وربما لقتلك أنت أيضا حتى يخلو الجو لزوج ابنتها ولا يزاحمه أحد في عرش السلطنة، فهز برويز رأسه وهو يقول في سره:

– بالفعل كما أرسلتك إلى حرب البنغال للخلاص منك وأيقظه من أفكاره ما قاله صديقه الخائن مهابت خان.

– لن يوقف هذه المرأة عن طغيانها وجبروتها إلا العصيان.

وافقه برويز على ما قاله وأكد له أنه معه إذا انشق بقواته على السلطان وزوجته.

وصل آصف خان إلى الدكن ولحق بشاهجهان وهو في بداية طريقه إلى قندهار واستطاع أن يقنعه بالتوقف عن مواصلة السير ويطلعه على تفاصيل المؤامرة التي دبرتها أخته السلطانة له ولزوجته وأن

ذهابه إلى قندهار ليس إلا محاولة للخلاص منه، وعاد شاهجهان إلى الدكن وأعلن رفضه لأوامر السلطان وكان أول مكان يذهب إليه هو السجن ليخرج زوجته ممتاز محل ويعتذر لها عما حدث ويضمها بين ذراعيه ويطلب منها أن تسامحه.

في الوقت الذي كانت الدكن تنعم بالرخاء والسلام تحت قيادة شاهجهان كانت نورجيهان تدفع السلطنة إلى الهاوية وأقنعت السلطان أن يجعل ولاية العهد لزوج ابنتها شهريار.

ضاق كبار رجال الدولة ذرعا بتسلط نورجيهان وغرورها وعبثها بمقدرات البلاد وأقنعوا شاهجهان أن يذهب على رأس جيوشه للخروج على السلطان وإنقاذ البلاد من عبث نورجيهان، وفى نفس الوقت كان القائد " مهابت خان " مع " برويز " قد خرجا عليه أيضا بجيوشهم وأصيبت قواته التي أرسلها إلى قندهار بقيادة شهريار بهزيمة منكرة وسقط الجيش في يد الهندوس.

رغم كل المصائب التي حاقت بالبلاد بسبب مكائدها لم ترتدع نور جيهان واستطاعت أن تقنع السلطان أن موقف شاهجهان هو سبب هزيمة شهريار في قندهار وضياعها وطلبت منه أن ينحى شاهجهان عن الدكن ولم تكتف بذلك بل جمعت حولها من كانوا يطمعون في نيل ممتاز محل من الأمراء قبل زواجها من شاهجهان - كل على حدة -.

كانت ممتاز محل تدرك قدرة السلطانة الأفعى على تدبير المكائد وتخشى على زوجها من سمها فطلبت بطيبة قلب أن يتقرب إلى والده وينال رضاه لأن رضاء الله من رضاء الوالدين؟ واقتنع شاهنجان برأيها وذهب إلى أبيه الذي فرح برجوع ابنه إليه وقبل توبته واعتذاره وعلمت نور جيهان بذلك، فحذرت السلطان من أن

ينقلب شاهجهان عليه مرة أخرى وطلبت ضمانا لذلك أن يجعل شاهجهان من يقسم العهد لشهريار و أن يرسل ولديه ليكونا رهينة لدى جدهما السلطان حتى لا ينقلب عليه مرة أخرى.

وانساق السلطان المهزوز وراء زوجته لكن الشرطان كان محجفان وكانت نور جيهان تعلم ذلك ولكن ممتاز محل حين علمت ذلك من زوجها طلبت منه أن يقبل الشرطين لكنه رد عليها مستغربا.

وهل تطيقين بعد صغيريك وتأمنين عليهما بتركهما تحت رحمة نورجيهان!!

- ممتاز محل: من أجلك أفعل أى شئ لأزيل من أمامك كل العقبات.

كان القدر رحيما بالزوجة المحبة لزوجها، فلم يمهل نورجيهان حتى تنفذ مكيدتها، مات السلطان جهانكيز خان وذهب آصف خان والد ممتاز محل ليخبر شاهجهان بالخبر، ويطلب منه العودة بسرعة ليعلن نفسه سلطانا على البلاد، لكن نورجيهان حرضت زوج ابنتها شهريار أن يعلن نفسه سلطانا على البلاد، وعلم آصف خان بذلك قبل ذهابه إلى شاهجهان فأسرع وألقى القبض بنفسه على شهريار ليمهد الطريق لشاهجهان لتولى السلطة قبل أن يفلت زمام الأمور.

وجلس السلطان الجديد على عرش السلطنة يحكم بالعدل والمساواة بين الناس عام ١٦٢٧م.

وذات يوم بينما يجلس السلطان على العرش وعلى يمينه السلطانة ممتاز محل وعلى يساره وزيره الأول يمين الدولة (آصف خان) ويجلس رجال البلاط على جانبى القاعة وهو ينظر في أمور الرعية ولم يبق لأحد ظلامة، سأل السلطان عمن بقى من أصحاب المظالم فوقفت السلطانة " ممتاز محل " تاركة مكانها لتقف أمام السلطان المتعجب مما يرى وقالت:

- أنا يا مولاى لى ظلامة.

السلطان " متعجبا ": أظلامة من السلطان؟

- السلطانة: صاحبة الظلامة تعجز الآن عن الحضور وأنا أعرض ظلامتها عنها.

- السلطان: وما ظلامتها؟

- السلطانة: كانت في دارها ذات قدرة ونفوذ من حولها مغريات الدنيا فهل يعيبها أن يكون لها أحلام وآمال؟

- السلطان: ما استحق الحياة من عاش بلا أحلام.

- السلطانة: وهل يعيب الجواد أن يخطئ فيسقط؟

- السلطان: لكل جواد كبوة.

- السلطانة: فإن كانت الكبوة بصاحبه فنال عنها العقاب ثم استغفر وتاب فهل يعفى ويثاب.

- السلطان: العفو عند المقدرة من شيم الأكرمين.

انحنت السلطانة " ممتاز محل " أمام زوجها في تقدير وقالت في رضى وثقة في كرمه:

- والله عرفتك أندى الأكرمين وأقدرهم على العفو والثواب.

نزل السلطان عن عرشه وأنهضها وهو يقول:

- أحسنت العرض والدفاع فإن كان الأمر يتصل بى فقد عفوت وأثبت فمن تكون صاحبة الظلامة؟

وكانت المفاجأة العظيمة التي تدل على كرم أخلاق هذه السيدة التي قل أن تتكرر فلم تكن صاحبة الظلامة سوى عمتها.. المرأة التي جرعتها سمها وحاولت الخلاص منها وإذلالها وتلويث شرفها.

اتجهت " ممتاز محل " ببصرها ناحية الباب وهي تقول:

- فليأذن لها السلطان بالدخول.

فأذن لها، ودخلت من الباب امرأة محجبة وقفت في ذل أمام الجميع واقتربت من ممتاز محل وأخذتها بين ذراعيها وهي تقول:

- ارفعى حجابك فقد عفا عنك السلطان يا نور جيهان وكانت المفاجأة العظيمة لشاهجهان لكنه لم يكن أقل من ممتاز محل كرما وسماحة، وقد ماتت ممتاز محل بعد ذلك وهي تلد ودفنت في أجل قبر في العالم بناه لها زوجها ليخلد هذا الحب العظيم ويخلد ذكراها.

* * *

بوبيا

كيـــد النســـاء

بوبيا

" إمبراطورة المكائد "

سحرت " بوبيا " بفتنتها كل من رآها من نبلاء وأشراف روما لكنها لم تكن تحلم بالحياة في أحد قصور روما زوجة لأحد نبلائها، بل كانت تحلم فقط بحياة البذخ والترف والمغامرة.

بحثت " بوبيا " في المحيطين بها فوجدت ضالتها في " أوتو " أحد أصدقاء " نيرون " أو مرافقيه وكان واسع الثراء، ولم تهتم بأنهم يطلقون عليه زعيم اللصوص الصعاليك، فالمال الذي يحقق لها أحلامها هو كل ما يهمها و " أوتو " يملك هذا المال.

كانت " بوبيا " تعلم أن الإمبراطور الشاب يأخذ حاشيته ومنهم " أوتو " ويخرجون ليلا وهو متخف في زى خادم ليعيثوا في الأرض فسادا يسلبون ويقتلون ويروعون الناس معربدين في كل مكان يحلون فيه حتى ينتهون في إحدى الحانات لقضاء ما تبقى من الليل لينطلق نيرون - الذي كان يتصور نفسه أعذب أهل الأرض صوتا - في الغناء وتشرق الشمس عن عربدتهم ونهبهم وقتلاهم المضرجون في دمائهم بشوارع روما.

ربما لم تكن " بوبيا " تعلم بما يفعلونه ولكن قرب " أوتو " من الإمبراطور هو الذي دفعها للتقرب من " أوتو " ثم الزواج منه بعد ذلك.

سعدت " بوبيا " حين عملت بعربدة " نيرون " وفجوره وازدادت سعادتها أكثر حين علمت أنه لا يتورع أن ينال من تعجبه من النساء لأنه سوف يفتح لها الطريق للوصول إلى مسعاها وتحقيق حلمها أن تكون إحدى عشيقاته.

تخمرت الفكرة في رأسها ورأت أنها جديرة بأن تكون أكثر من عشيقة للإمبراطور وكان يلزمها لتحبك مكيدتها بشكل جيد أن تكون لديها المعلومات التي تساعدها في نجاح تلك المكيدة، ولم يكن هناك مصدر أفضل من زوجها الذي يرافق الإمبراطور والذى لم يكن ليمانع في ذلك، وبدأت بوبيا تستفسر من زوجها عن ما لا تعرفه من شخصية الإمبراطور حتى تحكم خطتها للنيل منه أو نيله.

وبدأت تنفيذ خطتها بإثارة حفيظة الإمبراطور عن طريق المحيطين بالإمبراطور بالتحدث عنها أمامه ورأت أن غموضها هو السبيل إلى ذلك، فامتنعت عن الخروج وابتعدت عن الأنظار حتى تثير فضولهم وكانت إذا أرادت الخروج تخفى وجهها بقناع ثقيل يخفيها عن الأنظار حتى لقبت بالمقنعة الغامضة.

كانت أم الإمبراطور " آجريبين " يكرهها كل من في القصر لتسلطها وجبروتها وشهوتها للحكم وقد جعلها ذلك تبعد زوجة الإمبراطور عن القصر وتدفعه للانغماس في الملذات والشهوات لتنفرد هي بالحكم.

وجدت بوبيا في ذلك مصلحة لها فلاشك أن المحيطين بالإمبراطور يريدون وجود امرأة أخرى تكون في مواجهة أم الإمبراطور ويا حبذا لو استطاعت أن تقهرها وتحد من تسلطها فما المانع أن تكون هي هذه المرأة.

أما المحور الثالث فهو عدم حرص زوجها على حرمة بيته رغم علمه بأخلاق الإمبراطور حيث كان يتحدث عن جمال زوجته الذي لا يعرفه ولا يراه أحد غيره وكان هذا الحديث يصب أيضا في خدمة مخططها حيث أنه يثير شغف الإمبراطور لكشف الأستار وحل لغز المرأة الغامضة، وساعدها في ذلك دفع المحيطون به نحو هذا الهدف

بعد زرع الفكرة في رأسه، وحتى يزداد شغف الإمبراطور وتدفعه دفعا نحو هدفها قابلته مقنعة لا يظهر منها سوى عينان قد شهرت أهدابهما للفتك بقلب الإمبراطور ودك حصونه وتزداد رغبته في معرفة ما وراء ذلك القناع.

وهكذا نجحت خطة " بوبيا " وزارها الإمبراطور في غياب زوجها لكنها لم تخلع قناعها أيضا في ذلك اللقاء لتزيد النار اشتعالا في قلب الإمبراطور، ورغم ذلك لم تكن تحرمه من دلالها لتثير لعابه ولم يكن يفوتها أن تمنيه بكل ما يريد، ثم تتظاهر بأن وفاءها لزوجها يمنعها من ذلك ويقتل فيها رغبتها المشتعلة إليه.

المحور الرابع للخطة إزاحة (أوتو) الذي لم يكن من وجهة نظرها سوى جزء من خطتها لتصل إلى الإمبراطور الذي شعر هو بذلك ورأى أنه قد آن الأوان لإزاحة أوتو فأرسل إليه ولم يكن اليوم كأى يوم، ولا الطلب كأى طلب - إنه يطلب منه أن يترك له زوجته - ولم يكن يستطيع الرفض أو حتى الاعتراض رغم أنه يطلب منه تركها له بالخروج من حياتهما فقط ولكن بالخروج من الدنيا بقطع شرايين يده وعدم رفضه أن أمر الإمبراطور يعنى أنه إذا لم يفعل ذلك سيكون قد عصى الإمبراطور وقد يسبق الموت التعذيب المبرح وقد يكون الموت بطريقة أبشع.

وهكذا انتهت حياة " أوتو " بنهاية دوره في خطة " بوبيا " وذهب الخلاص إليها بعد الخلاص من " أوتو " ممنيا نفسه بنيل ما عجز عنه في الفترة السابقة لكنها ألقت في وجهه بسبب آخر يؤجل فوزه بها وهو الإمبراطورة الأم المسيطرة على القصر والتى تقوى من موقف زوجته " أوكتافيا " وتساندها.

كان ذلك هو المحور الخامس في خطة بوبيا - أو مكيدتها - وانساق الإمبراطور الولهان وراء شهواته لتجعله هو الآخر جزءا من خطتها أو أداة لتنفيذ رغباتها، ولم تكن الضحية هذه المرة بسيطة بل أقوى امرأة في البلاد " الإمبراطورة " الأم.

دفعت الإمبراطور رغبته الجامحة للنيل من بوبيا إلى تدبير مكيدة تخلصه من أمه الإمبراطورة وشرع في التنفيذ، عرض عليها الذهاب إلى جزيرة جميلة في عرض البحر للاحتفال بعيد منيرفا، وذهبت الإمبراطورة معه إلى الحفل وبعد نهاية الحفل أوصى قائد السفينة التي كان من المفترض أن تعيدها إلى القصير في بحيرة لوكرين أن يُغرق السفينة ويعود ببحارته في زوارق النجاة، وشعرت الإمبراطورة " آجرين " أن هناك مؤامرة على حياتها حين رأت السفينة تسير إلى عرض البحر وتتقاذفها الأمواج وأن القائد لا يعيرها اهتماما في حين يحرص على إنقاذ بحارته، فألقت بنفسها إلى البحر في الوقت الذي تغرق فيه السفينة، وحاولت إحدى الجوارى اللاتى كن على سطح السفينة أن تنجو فادعت أنها الإمبراطورة وكان جزاؤها الذي كانت ستناله الإمبراطورة الحقيقية ضربة بالمجداف على رأسها ليغرقها، ويخبر الجمع أن الإمبراطورة غرقت لكنها كانت قد سبحت إلى الشاطى ونجت.

كانت المفاجأة مذهلة حين حضر إلى الإمبراطور رسول الإمبراطورة ليخبره أنها نجت وأنها بخير، وهكذا أفسد الخبر ليلته مع بوبيا التي أخبرها بالخلاص من أمه في تلك الليلة لينال منها بعد أن يكون قد لبى لها كل ما طلبته منه.

وحتى لا تفسد خطته قفزت إلى رأسه فكرة جهنمية بتدبير مكيدة سريعة للوصول إلى هدفه فألقى بسيفه بين قدمى الرسول وصرخ طالبا النجدة فأسرع إليه حرس القصر يلقون القبض على رسول

الإمبراطورة الذي ادعى الإمبراطور أنه جاء لقتله بأمر الإمبراطورة، وذهب أحد الضباط ومعه مجموعة من الجنود فأدركت الأم أنه جاء بأمر الإمبراطور لقتلها فهتفت فيه:

– إن كنت تبغى شرا فعجل به ولتمزق أحشائى التي حملت ابنى العاق ذات يوم.

وبالفعل قتل الضابط الإمبراطورة وأشاع نيرون أن أمه الإمبراطورة أرادت قتله للسيطرة على العرش، فلما انفضح أمرها آثرت الانتحار - وهكذا أخذت الإمبراطورة دورها في طابور الدم تحت قدمى بوبيا - وأعلن الإمبراطور الحداد وتظاهر بالحزن والأسى أمام شعبه، لكنه كان يشعر بالراحة لإزاحته الإمبراطورة والخلاص منها تنفيذا لرغبة " بوبيا " ولم يبق غير زوجته " أوكتافيا " التي فقدت سندها بموت أمه لكن " بوبيا " لم ترحمها وأخذت تحرضه عليها حتى أبعدها عن القصر منفية مرصودة الحركة والأنفاس من حاشيتها وكانت حجته في إبعادها هو عقمها.

وهكذا لم يعد لدى " بوبيا " سبب للتمنع على الإمبراطور الغارق في هواها، ولم تمض سوى أيام على إبعاد " أوكتافيا ": ومقتل أمه حتى أقام الإمبراطور الأفراح الملكية وأعلن " بوبيا " إمبراطورة لروما.

لم تكد تفرح ببلوغ هدفها بفضل مكائدها المتوالية المحكمة حتى اندلعت مظاهرات الشعب الغاضب تحطم تماثيلها وتطوق تماثيل ضرتها بالزهور بسبب مجون الإمبرطور وبطشه الذي ازداد بعد زواجه من " بوبيا " واضطر الإمبرطور لتهدئة الشعب الثائر إلى إعادة أوكتافيا من منفاها وتلقاها الشعب الذي يحبها بالهتاف والغناء.

دفع هذا الموقف بوبيا إلى التفكير في الخلاص من ضرتها وبالطبع كان سلاحها في ذلك هو السلاح الذي تجيد استخدامه ببراعة " الكيد

".

سيّرت مظاهرة زائفة بأن دفعت لأعوانها الأموال لاستئجار بعض ذوى النفوس الضعيفة للهتاف وتحطيم تماثيلها والمطالبة برأسها وأخمد الحراس المظاهرة في حين هرعت هي إلى الإمبراطور تطلب منه حمايتها من أوكتافيا التي زعمت أنها قد أرسلتهم لقتلها وزعمت له أن " أوكتافيا " كانت تخونه مع أحد الأشخاص وأنه هو الذي كان يقود الجماعة التي أتت للخلاص منها واستشهدت على ذلك بخادماتها اللاتى قام أعوان " بوبيا " بتعذيبهم أشد العذاب ليشهدن بذلك.

صدق الإمبراطور كذبتها - مكيدتها - منخدعا - أو عن رغبة منه - وأرسل إلى " أوكتافيا " ودعاها للحضور فأتت ووقفت أمامهما برأس شامخ وهو يأمرها أن تختار الطريقة التي تفضل أن تموت بها - كنوع من التكريم - لكنها حين رأت أن الأمور قد وصلت إلى تلك النهاية توسلت إليه أن يتركها تحيا بمنأى عنه لكنه أمر أحد حراسه أن يفصل رأسها عن جسدها لتأخذ دورها في طابور ضحايا مكائد " بوبيا ".

خلال القصر " لبوبيا " بعد أن تخلصت من زوجها ومن أم الإمبراطور ومن زوجته بالإضافة إلى من ذهب في الطريق خطأ - لتنفرد بالإمبراطور الذي ظل لها وحدها لعدة أشهر وهو الذي اشتهر بعربدته ونزواته النسائية وشعرت بوبيا بالاطمئنان وزادت سعادتها بتحرك الجنين الإمبراطورى في أحشائها، ولكن تلك الفرحة لم تستمر طويلا فقد عاد نيرون إلى الابتعاد عن القصر والانغماس في الملذات مرة أخرى ولم تجد سوى الاستسلام للواقع.

كان بعض النبلاء موجودين في القصر وكانت تقضى وقتها معهم لكن أحدهم كان يحظى باهتمام، وهو القائد ماركوس الذي حقق انتصارات كبيرة في فتوحات الشرق، لكن القائد الشاب كان قد عشق فتاة من أسرى الليجيين وكان يصطحبها معه في كل الحفلات التي يحضرها ورغم علمها بما يمكن أن يحدث إذا علم الإمبراطور بما يدور في نفسها ولو ظننا إلا أنها لم تنس قدرتها على تدبير المكائد.

أرسلت " بوبيا " إلى " ماركوس " ولم يكن ليتأخر عنها، فقد أتى مسرعا وانحنى محييا فأشارت إليه بالجلوس إلى جوارها، ثم أشارت لأحد العبيد أن يملأ كأسه ونظر القائد حوله وهو ينبهها أن الإمبراطور سوف يغضب إذا علم بذلك، لكن " بوبيا " ردت في دهاء:

– إن نيرون لم يعد إمبراطور قلبي وكفاه أن أرضى كبرياءه وأتملقه، أما أنت أيها القائد المنتصر، فكم أحب أن أهزمك.

يبدو أن مكائدها لم تكن تخفى على أحد فقد استطاعت قبل دخولها القصر القضاء على كل منافسيها وهذا ما دفع ماركوس أن يرد عليها قائلا:

– وتفعلي معي كأنثى العنكبوت التي تأكل ذكرها عندما لا تجد ضرورة!!

فردت عليه بخبث تعنيه:

– ستكون ذا ضرورة دائما.. إلا إذا سحرتك فتاتك الليجية مرة أخرى، ساعتها سأعرف كيف أنتقم منك ومنها.

كانت الديانة المسيحية قد بدأت في الانتشار في روما آنذاك وكان المؤمنون بها يفرون إلى المقابر والكهوف هربا من بطش الإمبراطور - الذي لا يعرف شيئا عن الدين الجديد - وحاشيته الذين

كانوا يطاردونهم ويعذبونهم ويحرقونهم والسبب أنهم قد انصرفوا إلى عبادة إله الدين الجديد وما عادوا يعبدون الإمبراطور، وكانت الجارية الليجية التي يعشقها القائد " ماركوس " ضمن هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية وهو ما جعل " بوبيا " تحرض الإمبراطور على الانتقام من كل المسيحيين والقضاء عليهم ليخلوا لها قلب " ماركوس " وهي نفس الطريقة التي استولت بها على " نيرون ".

استمر الدين الجديد في الانتشار و " نيرون " عاجز عن القضاء عليهم بعد أن شحنته " بوبيا " ضدهم فقرر إحراق روما بما فيها من مسيحيين لينشئ روما جديدة لا يعبد فيها إله غيره كما أوعزت إليه " بوبيا " بذلك، وبالفعل أحرق " نيرون " روما ووقف هو و " بوبيا " يشهدان ألسنة اللهب تندلع في روما سبعة أيام. وكان ذلك عام (٦٤ م) لتختفى روما القديمة من الوجود.

شعرت بوبيا أنها حققت انتصارا جديدا اعتقادا منها أنها تخلصت من الفتاة الليجية التي يعشقها " ماركوس " وأنها بذلك قد أصبحت خياره الوحيد، لكن فرحتها لم تكتمل لأن " ماركوس " نفسه كان قد فارق القصر بعد أن اعتنق المسيحية وازداد غيظها أكثر حين علمت أنه قد أنقذ حبيبته الليجية من النيران.

لم يصدق الناس زبانية الإمبراطور الذين حاولوا إقناعهم أن الإمبراطور ليس وراء حرق روما، وازداد الغضب واشتعلت الثورة ولم يستطع الحرس الوقوف في وجه الجماهير الغاضبة وجلس نيرون وبوبيا وكبير حرص القصر الذي كان أول من أشعل النار في روما للتشاور والبحث عن مخرج.

الغريب أن المخرج كان بمكيدة من مكائد " بوبيا " أيضا، فالناس يطالبون بالانتقام ممن أحرق مدينتهم ولابد من وجود كبش فداء،

ورأت أن تضرب عصفورين بحجر واحد بالخروج من المأزق والانتقام من حبيبها الذي غدر بها وعشقيته التي فضلها عليها فأشارت عليهم بأن يكون " ماركوس " هو كبش الفداء ويخبرون الناس بأنه هو الذي أحرق المدينة وهرب هو وبعض معاونوه، وبدؤوا تنفيذ فكرتهم بالقبض على مئات المسيحيين وإلقائهم في ساحات المصارعة لمنازلة الأسود والنمور والكلاب الجائعة ثم ينهالون على من بقى منهم بالسياط بعد تعليقهم على صلبان خشبية مثبتين أطرفهم فيها بالمسامير دون أن تأخذهم بهم رحمة ليتمتع الإمبراطور وبوبيا بمشهد تعذيبهم.

لم يقتنع الناس ببراءة الإمبراطور وعادت الثورة للاندلاع من جديد، وكان الرد هذه المرة السرقة والنهب والضرائب الباهظة بحجة إعادة بناء روما، ولم يطق الشعب صبرا، فانطلق الناس يهاجمون القصر ولم يمنهم الحرس وشعر الإمبراطور الطاغية بقرب النهاية، فانطلق يجرى في القصر كالمجنون من قاعة إلى أخرى حتى وصل إلى غرفة نومه فحاول الاختباء بها وأغلق بابها خلفه، لكن " بوبيا " لحقت به إلى الغرفة فأدرك وهو يرى الموت يلاحقه أنها كانت السبب في كل ما حدث له ولروما فازداد هياجا وصاح فيها:

- ألا زلت هنا أيها الشيطانة؟ أين أمى؟ أين زوجتى؟ أين عرشى وعاصمتى؟ كلهما راحوا بسببك أنت يا " بوبيا " ولم يعد يبق سواك، أنت التي حرضتنى على قتل المسيحيين وجلبت كل هذه المصائب والويلات.

وانهال عليها ضربا وركلا حتى سقطت جثة هامدة هي وجنينها، وكانت الجماهير الثائرة تواصل زحفها داخل قاعات القصر بحثا عن الإمبراطور الهارب وزوجته، وكان الحرس قد انضموا إلى الثوار، وحين دخلوا القاعة التي بها غرفة النوم ورأوا الإمبراطور فطاردوه

وداسوا في محاولة اللحاق به جثة الإمبراطورة وجنينها وكان بعضهم يركلها بقدمه شفاء لغليله لتنال جزاء مكائدها.

* * *

صدوق وعنيزة

كيــد النســاء

صدوق وعنيزة

أرسل الله نبيه صالحا عليه السلام ليدعوهم إلى عبادته، فكان يبالغ في ذلك فيدخل إليهم في منازلهم ويقتحم عليهم مجالسهم يدعوهم إلى توحيد الله الواحد الديان، فكانوا يقولون له " أرنا آية تدل على صدقك " فيقول لهم: " إن أرأيتكم آية ولم تؤمنوا نزل بكم العذاب " لكنهم أصروا على رأيهم ظنا منهم أنه سيعجز عن تلبية طلبهم وقالوا له " إن آية بيننا وبينك أن تدعو ربك يخرج لنا من هذه الصخرة ناقة من الإبل غراء سواداء ذات عرف وناصية وشعر ووبر عشراء (أى مضى لحملها عشرة أشعر أو هي كالنفساء من النساء) متوَّجة. فإن فعلت ذلك آمنا بك وصدقناك واتبعناك، وإن عجزت عن ذلك فاكفف عنا قولك فإنا نكره أذاك وشتمك آلهتنا وكنت مرجوا قبل ذلك وأنت في فنائنا وعزنا وحسبنا ".

فأوحى الله تعالى إليه أن " أعط القوم ما طلبوا وما سألوك ولو أنى أحببت أن يكون ذلك من دعائك لأخرجتها أسرع من طرفة عين ليعلموا أنى على كل شيء قدير ". قال: فأقبل صالح على قومه وقال: " إن الله تعالى وعدنى إلى حاجتى؟ ويخرج لكم الناقة وتبيعها على ما تقولون، فإن أخرجها لكم أفتؤمنون به؟ " قالوا بشرط أن يكون لبنها ألذ من الزبد وأحلى من العسل "، فقال صالح عليه السلام " إن أخرجها لكم كذلك أفتؤمنون به؟

قالوا: بشرط أن يكون لبنها في الصيف باردا، وفى الشتاء حارا، ولا يشربه مريض إلى برئ من مرضه، ولا فقير إلا استغنى.

فقال صالح عليه السلام: إن أخرجها لكم أفتؤمنون به؟

قالوا: نعم، بشرط أن تدخل بالعشيات في بيوتنا، وتسمى كل واحد منا باسمه وتنادى: ألا من أراد اللبن فليخرج، فنحلب ما نريده تحت

ضرعها يمتلئ الإناء لبنا من غير احتلاب منا "

فقال صالح: قد شرطتم علىّ شرائط كثيرة وإنى أيضا أشرط عليكم، ألا يركبها أحد منكم ولا يرميها بحجر ولا سهم ولا يمنعها من شربها ولا من فصيلها من ذلك " فقالوا لك هذا كله يا صالح.

قال: فأخذ صالح عليهم العهود والمواثيق على هذا جميعه، ثم قام صالح عليه السلام، فتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه إلى السماء فلم تزل أقدام القوام في مواضعها حتى اضطربت الصخرة وتمخضت وتفجرت من أصلها بماء معين حتى امتلأ الوادى وجعلت تئن كما تئن المرأة الحامل عند الولادة والناقة تدور في جوانب الصخرة كالوليد في بطن أمه ثم خرج رأس الناقة ثم تكاملت بقدرة الله تعالى وهم ينظرون.

كانت الناقة تسير في السهل، فترعى الكلأ، فتهرب منها المواشى حتى أخذ ذلك بهم وأخذ بمواشيهم البلاء الذي كتبه الله عليهم.

كان من قوم صالح امرأتان على درجة كبيرة من الجمال، وكان لهما شياه وأبقار وأغنام كثيرة - إحداهما " صدوق " والأخرى " عنيزة " وكانتا من أشد الناس كفرا وكراهية لصالح، وقد أصابهما ما أصاب الناس من الضر، فازدادا كراهية لصالح عليه السلام، وكانت تحرضان الناس على عقر الناقة لما أخذت بمواشيهم وهروبهم من الناقة إلى الجبال وترك السهل لها.

وكانت المرأتان يعشقانهما رجلان من قومهما هما " قدار بن سالف " و " مصدع " زارهما العاشقان ذات يوم فأخذتا تتدللان عليهما.

قالت صدوق: لو كان لنا مزاج لأسقيناكما خمرا ولكن هذا يوم ورود الناقة فلا سبيل لنا.

وقالت عنيزة: " والله إن لنا إلى الماء سبيلا واسعا إن كانت رجالنا

رجالا، وهل هذه الناقة إلا ناقة من الإبل تطرد ويضرب وجهها عنا كما تضرب الإبل وتطرد؟ ولكن لا رجال لنا في الوادى.

وأكل " قدار " الطعم وسخنت رأسه فرد عليها قائلا:

- فماذا عليك يا صدوق إن أنا فعلت ما قالت عنيزة فكفيتك الناقة اليوم وشربها وخلا لك الشرب فوردت مواشيك ورويت وأصبت من الماء حاجتك؟

فقالت: لك إذا نفسى وما طلبت منى.

وكشفت عن وجهها لتبدى لها لينها وإمكانية نيله منها وأسرة جمالها الأخاذ، فلما رأى " مصدع " ذلك وسمع قولها طمع هو الآخر وسأل صاحبته أن يشارك " قدار " في نفس العمل وينال هو أيضا صاحبته فسألها:

- ومالى عليك يا عنيزة إن شاركت قدار في ما قال فشاركت صاحبتك في الماء؟

فقالت: لك نفسى أيضا.

وكشفت هي الأخرى عن وجهها لتطمعه فيها ثم قالت:

- اختر ما شئت منا.

وقضيا ليلتهما في خمر وفسق وفجور ثم خرج الرجلان وجمعا سبعة من أصدقائهما من سفهاء القوم ثم انطلقوا تسعتهم بسيوفهم وسهامهم فنحروها بعد صراع طويل معها ثم هربوا.

تبادر القوم إلى الناقة المذبوحة فانتشلوا لحمها وقسموه عليهم وطبخوه وعلم صالح الذي لم يكن موجودا بالأمر:

- هل علمت أن ناقة ربط قد عقرت وتقسمت وعلى لحمها في المراحل؟

فخرج نحوها سريعا في عصبة من قومه فوجد ما قيل له صدقا فأوعدهم العذاب من الله فسبوه، فقال لمن معه وهو في غضب شديد:

– التمسوا الفصيل فإن أنتم وجدتموه وإلا فاعلموا أن العذاب نازل عليكم.

فانطلقوا يطلبون الفصيل في الجبل فلما أرادوا أن يصعدوه ازداد الجبل طوبلا في السماء فلم يقدروا على الصعود، فلما رأوا ذلك أيقنوا أن العذاب سوف يحل بهم، فقال لهم صالح عليه السلام:

– تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، وذلك مساء يوم الأربعاء ثم أكمل:

– وآية ذلك أن تصبحوا غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد محمرة وفى اليوم الثالث مسودة، ثم ينزل بكم العذاب. فلما سمعوا ذلك تآمر قتلة الناقة لقتله فلما بلغوا داره لقيتهم الملائكة.

– ما تريدون؟

– قالوا: نريد أن نقتل صالحا وثمانية من قومه بمن قتل منا.

– قالوا: لا تعجلوا حتى تستدبروا الموعد الذي وعدكم ربكم فإن كان وعد ربكم حقا علا غضبكم.. وإن كان ما وعدكم به باطلا فأنتم وراء أموركم فافعلوا " فانصرفوا وتركوهم فأصبحوا يوم الخميس وجوههم مصفرة ثم أصبحوا يوم الجمعة وجوههم محمرة ثم أصبحت يوم السبت مسودة.

أنزل الله بهم العذاب بذنوبهم فلم يبق منهم أحد إلا جارية مقعدة كانت شديدة الكراهية لصالح عليه السلام ومن آمن معه، أطلق الله لها ساقيها حتى تخبر الناس بما رأت ليعتبر الناس وهلك القوم بسبب كيد هاتين المرأتين.

* * *

حتشبسوت

كيـــد النســـاء

حتشبسوت

كان للكهنة في مصر القديمة نفوذ كبير يستمدونه من المكانة الدينية للكهنة عند عامة الشعب، وكانت المعابد والأديرة معاهد يتولى الرهبان فيها تخريج الرهبان الجدد، وكانت مصالحهم التي تتمثل في المميزات التي يحصلون عليها من هذه المكانة أمرا لا يمكن التنازل عنه ويسعون للحفاظ عليها بأى وسيلة والغاية في النهاية تبرر الوسيلة.

لم يرزق الملك " تحتمس الأول " من زوجته الجميلة " أحموس " سوى ابنة واحدة هي " حتشبسوت " التي لم تكن تقل جمالا عن أمها لكن الملك كان يتمنى أن ينجب ولدا يرث عرشه، وهذا ما دفع حتشبسوت رغم صغر سنها إلى الظهور أمام والدها بملابس الرجال، وعدم ارتداء الملابس النسائية.

كانت أحموس هي الوحيدة التي يمكنها أن تجلس على العرش؛ لأنها ابنة أحموس ذات الدماء الملكية والذى جلس على العرش باعتباره زوجا لها فقط، ويبدو أن تحتمس لم يكن هو الملك الذي يستطيع الكهنة أن يسيطروا عليه، لذا أشاروا عليه بوجوب التنازل عن الحكم لابنته الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة عشر ليتمكنوا من السيطرة عليها.

ألقى الملك كلمة التنازل عن العرش لابنته وأجلسها إلى جواره على العرش وتقدم " هانوسيب " كبير كهنة آمون ومن بعده بقية الكهنة وكان على رأس المهنئين الأمير " سينموت " مدير بيت الإله آمون وعميد الطبقة الأرستقراطية وأعظم مهندس في تصميم المعابد المصرية، ولاحظ الأب أن العيون تنقل رسائل يعرفها جيدا بين الملكة الصغيرة والمهندس الشاب، لكن الملكة الصغيرة كان لابد أن

ترتبط بزوج تجرى في عروقه دماء ملكية، ولم يكن هذا الزوج سوى أخيها غير الشرعى " تحتمس الثانى " الذي كان دعاة الحرب الذين انتشوا بانتصارات والدها يؤيدون زواجه بها لكن الفتاة الصغيرة كانت قد عشقت المهندس الشاب وتزوجت " حتشبسوت " من أخيها لكنها كانت تخشى أن يتخلص من حبيبها بالإبعاد أو القتل، فعهدت إليه ببناء معبد يفوق في روعته كل ما رآه الناس.

أرادت حتشبسوت أن توصل إلى الوفود التي ستأتى للتهنئة وتقديم الهدايا رسالة مهمة مفادها أنها ليست امرأة ضعيفة وأكملت الرسالة بارتداء زى رجالى فضفاض من الكتاب ومن فوقه صديرية وأمسكت بالسوط في يد والقضيب المعقوف في اليد الأخرى، أما رأسها.. فقد أخفت الشعر بالتاج المزدوج الثقيل وتدلت من ذقنها لحية صناعية من الذهب على غرار لحية الإلهة " أوزوريس ".

وبدت نظراتها جامدة ووجهها تحمل قسماته عبوسا وتحديا وإن كان مصطنعا.

كان ما فكرت فيه " حتشبسوت " في مصير حبيبها المهندس الشاب " سينموت " حقيقة فقد أرسله الملك أو لنقل أبعده ليصح التعبير إلى منطقة نائية لكنها كانت قد دبرت لإعادته بأمر ملكى للشروع في إنشاء معبد جنائزى كبير في سفح جبل طيبة الغربى ليكون مدخلا إلى المقبرة السرية الحصينة التي تحفر في جدار الجبل.

كان زواج " حتشبسوت " من أخيها " تحتمس الثانى " زواجا ملكيا صوريا فقط ليشاركها الحكم لكن الحقيقة أنها هي التي كانت تحكم، ويبدو أن نشأتها هي التي جعلت منها تلك الشخصية القوية المسيطرة التي مكنتها من حكم البلاد لفترة طويلة بسلام يعاونها في ذلك مستشارون كان أبرزهم " هابوسنيب " الذي كان أبوها " تحتمس

الأول " يطمئن إليه.

مات الملك " تحتمس الأول " الذي كان يساند ابنته رغم عزلته ثم تبعه كبير الكهنة المخلص ليتبعه كاهن من الكارهين للملكة الجشعين ثم لحق بهم زوجها " تحتمس الثانى " الذي كان وجوده الشكلى يشجعها ويدعمها، وكان ذلك بداية المشكلات وانتشار الفتن والدسائس من حولها وأولها حق وراثة العرش حسب القانون الكهنوتى، فلم يكن لها ولد ذكر بل أنجبت بنتين وبالتالى تكررت المشكلة لتكون الوراثة الشرعية للعرش لابنتها " نفروع " وكان لابد من حل يرضى الشعب ويرضى " حتشبسوت ".

كان تحتمس الثانى قد أنجب ولدا من إحدى محظياته وقد انتظم هذا الابن في السلوك الكهنوتى وعمره آنذاك تسع سنوات، ويبدو أن الكهنة كانوا يعدونه على طريقتهم لخدمة أغراضهم ومصالحهم وواتتهم الفرصة أسرع مما توقعوا لتدبير ما سعوا إليه بتنشئة ذلك الطفل الذي ربوه على الحب الشديد لأبيه ليغذوا بعد ذلك فكرة الكراهية للملكة التي كانت تتجاهل أبيه. واستغلت فرصة مرضه للسيطرة عليه وعلى البلاد.

اتخذت الكهنة من معبد إله الشمس مقرا لمؤامراتهم وتدبيرهم ورأت الملكة أن الخطر أصبح أقرب إليها من السكوت عليه ولابد من القضاء على هذه المؤامرة قبل أن يستفحل الأمر ويخرج عن السيطرة، وأرادت الهجوم على المعبد والخلاص من الكهنة الذين يريدون الخلاص منها، لكن " سينموت " أخبرها أن ذلك سوف يثير الشعب عليها خاصة أن الكهنة لم يبد منهم ظاهريا ما يدفعها للحمل عليهم، وكان لابد من التفكير في مكيدة يواجهون بها مكيدة الكهنة للخلاص منهم، لكن الكهنة كانوا أسبق وأخذوا خطواتهم قبل أن يفتضح أمرهم بمكيدة شرعية أمام الشعب تم التدبير لها بذكاء شديد

وإحكام غير عادى.

لجأ الكهنة إلى الخداع والسحر ليقنعوا الشعب المسكين بما أرادوا فقد حملوا تمثال الإله آمون وساروا به إلى النيل ليصدر أمرا إلى النهر بأن يحول مجراه إلى أرض أصابها الجفاف كما زعموا وكان الطفل معهم أنه محور المؤامرة حيث كان يقف بين أقرانه الصغار في السلك الكهنوتى، ودار حملة التمثال ليقفوا به في اتجاهه فجأة، وكأن الإله هو الذي توقف ليختار هذا الصبى المدرب ليخر على الأرض ساجدا للإله شاكرا اختياره له في تمثيلية متقنة الإعداد والأداء، وصاحت الجموع البسيطة الساذجة مهللة للحدث ثم تولى الكهنة بقية الأمر في خطب رنانة موضحين المعجزة التي لم يسبق لها مثيل والتى تدل على اختيار الإله آمون لتحتمس الثالث الصبى ليكون فرعونا.

امتلأ قلب " حتشبسوت " غيظا بعد أن نجحت مكيدتهم ونالوا مآربهم وأرادت أن تضرب ضربتها وتنتقم منهم، لكن " سينموت " حذرها من أن الشعب البسيط قد صدق المعجزة المزعومة وأن أى تصرف غير مدروس قد يكون ثمنه حياتها وعرشها، ولذا لابد من التصرف بطريقتهم، وأن تقبل بإشراك الصبى معها على العرش حتى تتدبر الأمر وأيا كان شكل العلاقة بين " حتشبسوت " و " تحتمس الثالث " ورغم كونها وصية عليه وعلى ابنتها اللذان لم يبلغا سن الرشد إلا أنها كانت تشعر أنه يشاركها الحكم دون وجه حق وبتدبير من الكهنة وهو أيضا عمل لها قدرا كبيرا من الكراهية لقنها له الكهنة.

استطاعت حتشبسوت رغم ذلك أن تسيطر على الموقف وتفرض نفسها على العرش لتظل الملكة الحقيقية للبلاد وكان ذلك أمرا طبيعيا حيث كانت في التاسعة والثلاثين، و " تحتمس الثالث " في التاسعة.

خلال سبعة أعوام أحكمت تدبيرها تماما للأمور وأحاطت نفسها بالمستشارين المخلصين لتعلن نفسها ملكة شرعية على البلاد ولمدة ثلاثة عشر عاما كان تحتمس الثالث خلالها في عزلة لا يذكر اسمه إلا بعد اسمها، وكانت علاقة الملك الصبى لا تنقطع بالكهنة الذين أكملوا تدريبه وساعدوه ليشتد عوده، وكان من عادة الكهنة أن يدبروا مكائدهم بطريقة لا تشوه صورتهم أمام الشعب لتظل لهم قدسيتهم، وكان ذلك يستدعى منهم الحرص الشديد والتكتم الأشد، ولا شك أن ذلك يحتاج إلى وقت أطول.

بدأ المستشارون المخلصون يختفون من حول الملكة دون أن تظهر جثثهم بما فيهم حبيبها المهندس " سينموت " أخلص مستشاريها، وبدأ الخوف يتسرب إلى قلب " حتشبسوت "، وذلك ليلاً بعد وليمة أقيمت لتكريم كبار المحاربين عادت إلى حجرتها لتشعر بآلام في البطن وقيئ شديد وازداد الألم وأخذت تصرخ مستدعية من ينقذها لكن أحدا لم يأت إليها فقد أصدر " تحتمس الثالث " أمرا بعدم الدخول عليها لتسقط على رخام الغرفة مدركة أن النجاة مستحيلة وأنها النهاية، وخفت صوتها وأسلمت الروح إلى باريها.

في الصباح فتح الجوارى الباب ودخلوا عليها فوجدوها ملقاة في أرض الغرفة بعد أن قتلها الكهنة بمكيدة دبروا لها سنين طويلة في صمت ليثبتوا لها أن الكيد الكهنوتى أقوى من كيد النساء وحملها نفس الكهنة الذين قتلوها في وقار إلى قبر سرى لا يعرفه أحد، ويبدو أنهم دخلوا القبر بعد نبشه واستولوا على محتوياته.

* * *

زليخة ونبى الله يوسف

كيـــد النســـاء

زليخة ونبى الله يوسف

أورد القرآن الكريم قصة سيدنا يوسف بأسلوب عبقرى، فهى معين لا ينضب لعلماء النفس والاجتماع والأدلة الجنائية، وذلك العلم الذي أسسه وأرسى القرآن مبادئه، ولعل الحديث عن الكيد في قصة سيدنا يوسف هو حديث بسيط يأخذ منها ما يأخذ المخيط من ماء البحر.

ولتكن بداية الحديث عن ما دار من مراودة زليخة ليوسف عن نفسه بكل ما لدى الأنثى من أسلحة فتاكة، لكن يوسف عليه السلام حفظه الله تعالى، فلما عجزت بكل سبل الإغراء ونفذ صبرها أرادت أن تستخدم آخر أساليب الأنثى وهو وجوده بين أحضانها لعله يلين لكنه أراد الفرار من أمامها ليتقى شرها فجذبته من قميصه وهنا شاء القدر أن يدخل زوجها الملك ومعه أحد أفراد أهلها وكان رجلا حكيما.

بأسلوب الأنثى هرعت زليخة إلى الملك ترتمى على كتفه وهي تبكى ببراءة مصطنعة وتقول له:{مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا} [يوسف: ٢٥]، فهى تريد أن تلصق التهمة بيوسف لتبرئ نفسها أولا ولتتمكن بعد ذلك من إخراج يوسف من العقاب الأشد والاحتفاظ به خالصا لها تحت رحمتها بعقوبة تضمن وجوده أمام عينها ذليلا صاغرا، فتحدد العقوبة التي تفيدها قبل أن يثبت الاتهام بعد أن نصبت نفسها مدعية:{ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ} [يوسف: ٢٥]، لكن يوسف يدافع عن نفسه بقول الحقيقة ويعينه على ذلك صدقه لأنه ربى لديهم منذ صغره.

هنا يتدخل مرافق الملك الذي هو من أهلها فيضع أسس علم الأدلة الجنائية قبل أن يعرفه العالم كله قائلا:{إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾} [يوسف: ٢٦ - ٢٧]، وبهذا بدت الحقيقة واضحة، فقميصه

" قد ": أى تمزق من " دُبُر " أى من الخلف حين جذبته منه لتعيده إليها، وبالتالى تجلت براءة يوسف.

فماذا تكون العقوبة؟ أو كيف يتصرف الملك في هذه المشكلة؟

{ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ} [يوسف: ٣٠]، لابد من دفن الموضوع أن يسكت يوسف ولا يتكلم عن ذلك أبدا، وتنصح هي بعدم العودة لذلك:{ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا} [يوسف: ٢٩]، أما هي: {وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ} [يوسف: ٢٩]، كل ما يهم هذه الطبقة ألا تفوح رائحة الفساد الأخلاقى، لكن الخبر انتشر عن طريق خدم القصر إلى القصور الأخرى وانتشر الأمر بين زوجات الطبقة الأرستقراطية آنذاك أن:{ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا} [يوسف: ٣٠].

لا محالة انتشر الموضوع وفاحت رائحة الفضيحة فماذا تفعل؟

لابد أن يعمل العقل الأنثوى بالكيد:{فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ} [يوسف: ٣١]، صرن يتغامزن وينسجن الحكايات الصحيحة وغير الصحيحة ولابد من عمل يخرس الألسنة الحداد وسكتها عنها.

دعت زليخة هاتيك النسوة وأعتدت عتاد المعركة الحربية وجهزت أسلحتها وهيأت مكان المعركة بما يوفر لها فرصة النصر الأكبر، جهزت المكان في الحديقة الغناء وأحضرت الفاكهة الطازجة الشهية والسكاكين التي تقطع بها الفاكهة، وانتظرت حتى ينشغلن جميعا في تناول الفاكهة والحديث وأمرت يوسف أن يدخل عليهن، فلما رأينه خيم عليهن الذهول من جماله وبهائه وبحلقت العيون وفتحت الأفواه بعد أن توقفت عن الأكل، واستمرت الأيدى تجذ بالسكاكين لقطع الفاكهة لكن الثمار تجاوزها حد السكين ليقطع الأيدى وتسيل الدماء، ولا يفيقن من ذهولهن لكن تنطق الألسن:{حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا

مَلَكٌ كَرِيمٌ}[يوسف: ٣١]، وتضحك زليخة ضحكة المنتصر وقلبها يعتصره الأمل فهى لم تنل منه ما تريد، فتصرخ فيهم بلوعة:{فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ} [يوسف: ٣٢]، وبجزم وإصرار تنظر إلى يوسف:{وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ} [يوسف: ٣٢]، فهى لا تزال تؤكد وأمامهن جميعا أنها تريده وأنها لم تنل منه بغيتها وقد اختارت العقوبة التي تخدم هدفها مثلما فعلت في المرة الأولى ولكن هذه المرة تتوعده بأن تسجنه وتذله إن لم يستجب لأهوائها لكن الله سبحانه وتعالى كان يحفظ نبيه.

* * *

سوارج

كيــد النســاء

سوارج
ابنة ملك السند

شاهد المقاتلون السند إلههم المقدس وهو ينهار أمامهم بضربات المنجنيق الضخم الذي يديره خمسمائة رجل من المسلمين أثناء الرمى بعد حصار السند التي انهزم فيها من قبل ثلاثة من القادة، وكان سقوط صنمهم فأل شؤم بالنسبة لهم وخرجوا مندفعين من داخل المعبد يقاتلون قتال اليائس وانطلقت سوارج ابنة ملك السند تستحث الجنود للدفاع عن أرضهم أمام ستة آلاف مقاتل مسلم على رأسهم محمد بن القاسم، ومُنى السند بهزيمة مخزية وفر جنودهم ولكن صوت " جاى سنج " ابن الملك انطلق مرة أخرى يطلب من الجنود عدم الانسحاب وقتال المسلمين دون جدوى، فقد فر الجنود إلى الحصن وأغلقوا الأبواب خلفهم ليحتموا به.

أمر محمد بن القاسم أن تنصب السلالم لتسلق الأسوار ومواصلة الهجوم وكان أول الصاعدين مقتديا بالزبير بن العوام الذي تسلق " حصن بابليون ".

على نهر " مهران " كان يجلس ملك السند حين ذهب إليه ابنه وابنته يخبرانه بنتائج القتال فسخر منهما وقال لابنته:

– أيتها البلهاء أتخشين جيش المسلمين الحفاة، إنهم قرابين.

وتستحث أميرة السند أباها الذي ينتظر جيش المسلمين على رأس جيشه وراء النهر، وتشارك سوارج وأخوها في القتال، ويحاول أخوها إبعادها عن المعركة لكنها تصر على القتال وتقسم أن تقتل قائد المسلمين محمد بن القاسم وتندفع ناحيته رافعة سيفها تهاجمه وهي تصرخ:

– أنت إذن ابن القاسم لا نجاة إن نجوت. الآن خذ وأنا أميرة السند ويمسك بها ابن ثعلبة من الخلف فيسقط سيفها وينظر إليها ابن القاسم وهو يخفض سيفه قائلا:

– امرأة.. خذى سيفك وانصرفى ليس هنا مواطن النساء لكنها تصرخ فيه بتحد.

– أقسمت أن أقتلك، وسأفعل.

ويأمر القائد بعض جنوده بأخذها إلى خلف المعسكر ويوصيهم ألا يؤذيها أحد.

ويموت الملك في المعركة على يد ابن ثعلبة بعد أن يعرض عليه الإسلام قبل مبارزته وتمضى الشهور وابن القاسم يواصل تقدمه في بلاد السند لتطهيرها من الأوثان ويقيم العدل بين الناس حتى اجتمع حوله الناس " أهل البلاد "، وذات يوم كان ابن القاسم يجلس في مقر إقامته وحوله جمع من رجاله بينهم ابن ثعلبة ينظر في الشكاوى ويمنح الأعطيات لمن يستحقها، فدخلت عليه " سوارج " يقودها جندى مسلم حتى توقفت أمام القائد الذي راح يتأملها في إعجاب لكنه كان متظاهرا بالانشغال عنها بالحديث مع ابن ثعلبة ثم التفت إليها:

– ألست الفتاة التي حاولت قتلى في المعركة، ومع ذلك فأنا معجب بشجاعتك وتصميمك، فمن تكونين؟

فردت " سوارج " في تحد:

– أنا ابنة ملك قتلتموه ورويتم بدمع الزكى أرض أجداده.

فقال ابن القاسم في هدوء محاولا تهدئة روعها:

– ما عليك يا أخت.. هي الحرب.

فردت عليه في حدة:

- لكنكم ما رعيتم حرمة الحرب، أسرتمونا لتلقوا بنا إلى التهلكة وتثلموا منا الشرف.

ويعدها ابن القاسم.. أن تبقى إلى جواره ولا يمسها أحد بسوء شريطة أن تحفظ العهد.

ومضت " سوارج " إلى غرفتها آمنة لا يسئ إليها أحد كما أمر ابن القاسم، وكان كلما لقيها في دار الإمارة هون عليها، لكنها كانت تتظاهر بحفظ العهد بينما هي في داخلها تدبر أمرا لقهر المسلمين والقضاء عليهم، ففى أحد الأيام بينما ابن القاسم يحاول التخفيف عنها، وهو ما لاحظه ابن ثعلبة وهشام ويخشون عليه منها ومما قد تدبره من مكر أو كيد وهو ما حدث بالفعل، فقد كانت الأميرة السمراء الجميلة تظهر الود والمحبة للقائد العربى وتشعل نار الحب في قلبه لتنال غرضها وتثأر لأبيها وتخرجهم من بلادها.

عزم هشام وابن ثعلبة على مراقبة أميرة السند عن قرب حتى يتأكدوا من شكوكهم ولاحظوا أنها تخرج من القصر قبل حلول الظلام ثم تتلفت حولها في اضطراب قبل أن تتسلل بين الأشجار وتقف عند شجرة تقطف منها بعض الأزهار ثم تعود متسللة إلى القصر، فانتظروا بالقرب من تلك الشجرة في اليوم التالى فرأوها تضع فيها لفافة أخرجتها من بين طيات ملابسها قبل أن تسرع الخطو في طريق العودة، فانتظروا بعض الوقت لمعرفة ما سيحدث بعد ذلك، فرأوا فتى في زى حدائقى يقترب من الشجرة ويلتقط اللفافة ويمضى سريعا، فلحقوا به وأمسكوه فإذا به " جاى سنج " أخوها فقبضوا عليه.

وكانت أخته دونت في اللفافة كل تحركات ابن القاسم وأعداد الرجال والمجانيق وتذكير أخاها بشرطها ألا يقتل ابن القاسم، وهكذا انكشف

سر الأميرة الجاسوسة وانكشفت مكيدتها قبل أن تحقق أهدافها.

عزل الخليفة سليمان واليه ابن القاسم وعين واليا آخر على السند وذهب الوالى الجديد ومع صالح بن عبد الرحمن الذي كان مكلفا أن يسوق ابن القاسم في أثقال الحديد إلى السجن ويأتى به إلى دمشق ولم يقصر صالح بن عبد الرحمن الذي كان يحقد على الحجاج بن يوسف الثقفى وكل من يمت إليه بصلة، فحبس ابن القاسم وأذاقه كل صنوف العذاب وراح يبحث له عن تهمة يلصقها به وجاءته الفرصة في وجود الأسيرة " سوارج " ابنة ملك السند التي كانت تنزل أسيرة في دار صديقه ابن صفوان، فانطلق إليها ودبر للقائها ليتآمرا معها ويصل من خلالها إلى مآربه واتفق معها أن تشهد أمام الخليفة أن ابن القاسم لم يرع حرمتها ولم يصن عرضها وأرسل صالحا بالأمر إلى الخليفة وقتل ابن القاسم لكنه لم يعد الأميرة إلى بلادها كما وعدها.

وفى يوم المظالم دخلت الأميرة السندية " سوارج " إلى الخليفة وإلى جواره الشيخ صفوان وتحدثت إليه في ذلة ومسكنة وقالت:

- وحقك يا مولاى ما أخذت حقى حتى اليوم.

وسألها الخليفة في استغراب عن حقها فقالت:

- إن صالح بن عبد الرحمن وعدنى بعتقى وردني إلى بلدي ووفيت وما وفى.

فمال صفوان على الخليفة وأخبره أنها تعنى بحديثها ابن القاسم.

فقال سليمان بغضب:

- قد مضى بجرمه وفجوره وحق عليه القتل.

وقال صفوان:

– لم يصن طهرك وعفتك وخان أمانة العرب، فقتله ابن عبد الرحمن بأمر الخليفة.

وصرخت " سوارج " وهي تلقى بنفسها تحت قدمى الخليفة:

– هي فرية يا مولاى اختلقها صالح بن عبد الرحمن على ابن القاسم واشتركت معه فيها من أجل عتقى وردى إلى بلادى وهو منها برئ.

ونهض الخليفة مغضبا:

– يا خائنة.. تخرج كلمة من فم الخليفة مأخوذة بفرية تفترينها ويتكلم الناس عن قتل ابن القاسم بالظلم والعدوان والإفك والبهتان.

فهتفت الفتاة في ذعر:

– وحقك ما قصدتها بل دفعنى إليها صالح بن عبد الرحمن.

فصاح الخليفة غاضبا:

يا سياف.. اقتل هذه الأفعى، ثم اذهب من فورك إلى البصرة واقطع رأس الزنيم ابن عبد الرحمن.. الذي حرك الأفعى وكذب على أمير المؤمنين.

* * *

صبيحة

كيــد النســاء

صبيحة

جارية بشكنسية نافارية مسيحية لم تدخل الإسلام إلا بعد أن أصبحت إحدى الجوارى الأسيرات في قصر الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر الذي أعجب بجمالها وذكائها وفطنتها، فأهداها إلى ابنه وولى عهده الحكم " المستنصر بالله: لكنه لم يكن يهتم بزيارة جناح الحريم، وكان طوال فترة خلافة أبيه مشغولا بخوض غمار الحروب ضد الإفرنج، وحتى بعد أن انتهى من الحروب انشغل مع أبيه في إدارة دفة الحكم، ثم مات أبيه وجلس هو على كرسى العرش وهو في الثامنة والأربعين، رجل زاهد في الحكم ولم تأسره شهوته إليه، بل كان مشغوفا بالقراءة ونهل العلم، فكان يقضى معظم وقته في المكتبة الغامرة العامرة بالكتب القيمة وبدلا من مجالس رجال الدولة لمتابعة شئون الحكم كان يجالس أصفياءه من العلماء.

على الجانب الآخر كانت صبيحة تطلق العنان لخيل أحلام يقظتها، فهى إحدى حريم الحكم ولا ينقصها شيئا لتكون مقربة منه وأسر قلبه، فهى جميلة وذكية ومثقفة وزوجته لم تنجب له ولدا يكون وليا للعهد والخليفة مهتم بهذا الأمر، ولكن كيف يمكن لها تحقيق ذلك الحلم.

رأت صبيحة أن المكتبة هي المكان المناسب للفت انتباه الأمير وربما أسر قلبه لأنه يقضى معظم وقته بالمكتبة ولاشك أنه في المكتبة سيكون في أفضل حالاته النفسية، وذهبت إلى المكتبة لتقرأ وكانت تختار بدقة المكان الذي تجلس فيه حتى تقع عين الخليفة عليها، وذات يوم كانت بالمكتبة حين دخل الخليفة ومعه حاجبه جعفر المصحفى ومع قاضيه ابن السليم، ونهضت " صبيحة " في حرج شديد " مفتعل طبعا " متظاهرة بمغادرة القاعة للفت انتباه الأمير،

وبالفعل حدث ما أرادت فقد استوقفها الخليفة وطلب منها الجلوس ومواصلة القراءة ثم طلب منها مشاركتهم جلستهم وسألها عن الكتاب الذي كانت تقرأ فيه، فأخبرته أنه " حقوق المرأة في الإسلام ".

فهز القاضي رأسه بانبهار من ذكائها وازداد " الحكم " إعجابا بها وسألها عمن تكون!! فأخبرته أنها جارية من جواريه.

فقال مستغربا:

- أنت من نساء القصر؟!!

قالت: نعم.. إحدى جواريك يا مولاى.

فنظر " الحكم " إليها مليا في إعجاب شديد ثم قال:

- أنت أحلى من الفجر وأندى من البكور.. أنت ": صبح ".

وهكذا نجحت صبيحة في الوصول إلى هدفها وأصبحت أقرب إلى الخليفة من أى امرأة أخرى، ويتحقق لها بقية الحلم بإنجابها ولى العهد " عبد الرحمن " ثم " هشام " وإن كان لم يجعلها زوجة رسمية له إلا أنه أسماها أميرة قرطبة وأم ولى العهد، ومات عبد الرحمن الابن الأكبر، بينما " هشام " لم يزل طفلا، وهذا ما جعل أخوه المغيرة يطمع أن يعلنه الخليفة وليا للعهد، لكنها لم تهدأ وقاومت هذا الأمر حتى نجحت في أن تجعل الخليفة يعلن " هشام " الطفل وليا للعهد.

غضب " المغيرة " وأنصاره على الخليفة وزوجته وأخذوا ينثرون الشائعات حولها في كل مكان بقرطبة وكانت كلما ازدادت الشائعات ازدادت صلتها بالخليفة حتى أصبح يحقق لها كل رغباتها، بل أشركها في إدارة أمور الحكم وعين لها كاتبا خاصا ومربيا لولدها، ومشرفا على شئون وإدارة أمواله وهو محمد بن أبى عامر، وكان شابا صغيرا لم يبلغ العشرين لكنه عرف كيف يوثق علاقته بالأميرة

ويرد عنها وعن ابنها نزوات الطامعين كالمصحفى والمغيرة.

كان ابن عامر كاتب رسائل على باب القصر يكتب رسائل غلمانه حتى ذاع صيته وبلغ صبيحة فأرسلت إليه تستكتبه بعض الرسائل وحين طلب الخليفة من وزيره " المصحفى " كاتبا " لصبيحة " كان هو أحد المرشحين واستطاع أن يجتاز الامتحان لتختاره كاتبا لها.

أحس " المصحفى " أن الفتى الذي رشحه أصبح عينا عليه وأن أمورا كثيرة بدأت تتكشف أمامها وهو ما يهدد بفقده لموقعه ليحل الفتى محله خاصة أن " صبيحة " ترعاه وتدلله وتذكره بالخير عند الخليفة حتى أصبح موضع ثقته هو أيضا، وكان هو في المقابل لا يترك فرصة إلا يعبر فيها عن شكره ويجلس إليها بالساعات يحدثها دون أن يشك الخليفة في شيء.

أخذت الشائعات تنتشر وإن كان الفتى يلاحظ أن الأميرة تبدى ميلا إليه وقد أصبح بفضلها ناظر خزينة الدولة (وزير مالية) ثم عين للنظر في أمانة السكة، ويبدو أن ذلك ما جعله يتأكد من حب الأميرة له علاوة على أنها تكون أمامه مسلوبة الإرادة.

كان المصحفى يلاحظ ذلك وفى نفس الوقت يخشى على مكانته في وجود ذلك الشاب، فقرر أن يضرب ضربته ليسقط الثقة بابن عامر ويزيحه عن طريقه وأخذ يفكر في الطريقة التي يفعل بها ذلك، ويأمن عضب الأميرة وعداوتها، دس إلى الخليفة من يخبره بتبذير ابن أبى عامر من أموال بيت المال، وما يقوله الشعب عن نفقاته الباهظة من هذا المال، وصدق الخليفة هذا الكلام وأرسل لابن أبى عامر وسأله عما يقول الناس من تبديده ما بعهدته من أموال، ولم يكن ابن أبى عامر يتوقع ذلك، لكنه تماسك وطلب من الخليفة أن يثبت له عكس ذلك من خلال تقديم كشوف حساب بما لديه من عهدة.

في اليوم التالى ذهب الخليفة والمصحفى إلى بيت المال وقدم ابن أبى عامر دفاتره وقام الخليفة ووزيره بجرد الخزائن فوجدوا أن ما بها مطابق للمثبت بالدفاتر، وشعر المصحفى الذي كان متأكدا من وجود العجز بخيبة أمل كبيرة لأنه لم يكن يتوقع أن يستطيع ابن أبى عامر تسوية ذلك العجز في ليلة واحدة، لكنه لم يتوقع أن تقوم الأميرة بتسديد ذلك العجز.

لم يعد الخليفة قادر على الابتعاد عن ابن أبى عامر المحدث اللبق الأمين الذي يحظى برعاية الأميرة، وازداد خوف المصحفى بعد نجاة ابن أبى عامر وعدم وقوعه في الفخ الذي دبره له، وبالتالى فقد أصبح من المؤكد أنه يحظى برعاية الأميرة، ومن المؤكد أنها ستكون العقبة في طريق إزاحته.

فكر المصحفى في الأمر بشكل مختلف، فقد رأى أن يكيد للأميرة نفسها من منطلق أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، ويساعده في ذلك حاجب الخليفة وراح يوحى لأبواقه بأن تشيع وجود علاقة شائنة بين الأميرة وكاتبها لوضع حد لعلاقتها به ليتمكن من الخلاص منه.

خشيت الأميرة على سمعتها وخشيت كذلك من غضب الأمير، فقد دس من يبلغ هذه الشائعات إلى الأميرة دون أن يظهر هو في الصورة حتى التقى وصيفة الأميرة وهمس في أذنيها بأن تقنع الأميرة بضرورة وضع حد لهذه الشائعات التي انتشرت في جميع أنحاء قرطبة، وتملكت الوصيفة الحيرة في كيفية إبلاغ الأميرة التي لاحظت حيرتها، فسألتها عن سببها وسر شرودها، واضطرت الوصيفة بعد ضغط الأميرة عليها للحديث.

لم تُخف الأميرة قلقها واضطرابها واستسلمت للبكاء خوفا من وصول هذه الشائعات للخليفة وما يمكن أن يحدث نتيجة لذلك،

وبالفعل بدأت صبيحة تقلل من لقاء ابن أبى عامر وتتحاشى لقاءه، وكانت تلك هي البداية التي أرادها المصحفى، فانتهز فرصة لقائه بها في أمر من أمور الدولة التي كانت تشارك فيها وسألها عن سر حيرتها وقلقها الذي يبدو عليها ولشدة ضيقها بكت " صبيحة "، بينما راح هو يستدرجها وألمح لها إن كان سبب ضيقها هو تلك الشائعات التي تنتشر في قرطبة فإنى أنصحك بأن تبعدى كاتبك عن قرطبة إلى حين وبسرعة قبل أن يستفحل الأمر.

ردت صبيحة في دهشة: إننى بذلك سوف أذكر الشائعات وأعطيهم اعترافا بأنه ارتكب ما يستحق الإبعاد.

رد المصحفى بدهاء مداريا خبثه وشعوره بالنصر: إنما أحرص على سمعة مولاتى وأن تكون أمامنا فرصة لنفى الشائعات قبل أن تصل إلى الخليفة.

وحقق المصحفى غرضه من المؤامرة وإن كان ابن أبى عامر قد رقى قاضيا أو حاكما على أشبيلية لكنه ابتعد عن مكانه في مصر الخلافة ليعود المصحفى صاحب الكلمة الأولى في قرطبة من جديد.

لم يمض وقت طويل حتى اشتد المرض بالخليفة الذي كان يخشى أن تؤول ولاية العهد إلى أخيه المغيرة دون ولده الصغير هشام، وانتقال الخلافة إلى المغيرة الذي يعرف أطماعه.

كان الخليفة بعد وفاة ابنه عبد الرحمن قد أعلن صبيحة ملكة على قرطبة ليخفف عنها أحزان فقد ابنها وأقنعته عند مرضه أن يعلن البيعة لابنه هشام ويأخذ عليها تواقيع الأعيان والأشراف والأمراء، وكان يخشى ألا يوقع على البيعة أمراء وحكام مراكش وإفريقية وبقية الأندلس، ويعلم في الوقت نفسه أن المصحفى يميل إلى المغيرة ولا يجد من يثق به لإقناع الحكام والأمراء، فردت عليه صبيحة

بثقة:

- لا يقوم بذلك سوى محمد بن أبى عامر، فهو خير من يقف وراءك ويرعى ولى عهدك لو صار وزيرا للقصر.

ويبدو أن العرض قد لاقى استحسانا لدى الخليفة فوافقها عليه وطلب منها أن تكتب إليه أن يعود مسرعا إلى قرطبة، وفور عودته تولى وزارة القصر وتولى بيت المال الذي كان يقوم عليه المصحفى واستطاع بالفعل أن يأخذ موافقة الأمراء والحكام على البيعة لهشام قبل أن يرحل الخليفة إلى الدار الآخرة.

وحتى يكمل ابن أبى عامر خدماته الجليلة للملكة ولابنها الخليفة الصغير قضى بنفسه على المغيرة لتصبح له اليد الطولى في قرطبة من خلال موقعه بالقيام على رعاية الصغير، ويبدو أن الوضع الجديد قد شجع الملكة أن تبدى ما أخفت زمانا تجاه كاتبها السابق ابن أبى عامر لكنه كان حريصا على عدم الوقوع في حبائلها، فكان يبتعد قدر الإمكان عن الانفراد بها وأخذ يشغل نفسه بالمعارك ضد الفرنجة والمتمردين من الصقالبة وأنصار المغيرة والمصحفى.

ذات يوم كان ابن أبى عامر عائدا من إحدى معاركه مع الفرنجة منتصرا واستقبلته البلاد استقبال الفاتحين وكان في استقباله بقصر الزهراء رجال البلاط والخليفة المؤيد والملكة (الوصية) التي كانت تسعى لتنبيهه إلى الغرام الذي يشتعل بها قلبها فقالت له:

- والله إن السبب في هذا النصر هو قيادتك الحكيمة وإن المصحفى ليغلبه الحقد عليك ولن يهدأ حتى ينتصر عليك.

فرد ابن أبى عامر ضجرا:

- والله لست أدرى إلى متى هذا التنافر؟!

فردت صبيحة بدعاء الأنثى التي تريد أن تخبره بأمر لعله يفهم

مغزاه:

– إلى أن يتم المؤامرة ويجعلنى أتخلص منك ومن قائد الجيوش غالب أبى أسماء.

ورد المنصور أبى عامر مستغربا:

– أسماء!!

فقالت صبيحة متظاهرة ببساطة الأمر مخفية ما يعتمل داخلها:

– قل لى أحقا ما يقولون أن خطبت أسماء بنت أبى غالب؟

وكانت المفاجأة تربك الوزير المنتصر، لكنه تماسك وقال:

– كنت أنتظر المناسبة لأستأذنك فيها يا مولاتى فقد شعرت أن المصحفى يدبر ليفرق بيننا وبين غالب قائد الجيوش فقلت أغلبه بأسماء.

فردت صبيحة بدلال وعتاب:

– تغلبه وتغلبنى بها يا منصور.

رد الوزير:

– حاشا لله يا مولاتى بل أغلب ألسنة السوء التي تلفظ الشائعات على الملكة والمنصور.

فردت صبيحة:

– إذن تريد أن تهجرنا يا ابن أبى عامر!!

ولم يعد هناك من سبيل للف والدوران فرد عليها المنصور قائلا:

– ما يجرؤ المنصور على ذلك أبدا لكن كونى عونا يا مولاتى ولنفسك لنخرس الألسنة إلى الأبد وليتم كل شئ برضاك وبركتك أمام الناس جميعا.

واستطاعت صبيحة أن تكبح جماح قلبها، وتشرف بنفسها على حفل الزفاف الذي دفعت نفقاته ونفقات ملابس العروس، ثم توقع بيدها على عقد القران، واستطاع ابن أبى عامر أن يرد للمصحفى ما فعله من قبل بضبطه ناهبا خزانة الدولة بعون من الوصية صبيحة وبدأت المحاكمة وأسقط المصحفى من الحجابة وأبعد أبناءه، وحكم المجلس بعزله ومصادرة أملاكه وسجنه وطرد أقاربه.

خلا بذلك منصب الحاجب ليتولاه ابن أبى عامر تؤيده وتؤازره الملكة الوصية (صبيحة) وأصبحت له الكلمة الأولى ليصبح هو المتصرف في كل أمور الدولة ويسمى نفسه الملك المنصور.

لم تكن صبيحة تدرى أن حبها للمنصور ورفعها لقدره ليعاونها في إدارة شئون الحكم وظنها أن يهواها سوف يجعله سجانها ذات يوم ويغير مقر الحكم ليمنع الخليفة الذي بدأ يشب عن الطوق والوصية من التدخل في شئون الحكم، وأنشأ مدينة للحكومة ومرافق الدولة أسماها الزاهرة واستطاع أن يقنع صبيحة أن تعزل ولدها في القصر حتى يتم تدريبه وتوجيهه إلى شئون الخلافة والحكم.

ولم يعد المنصور يذهب إلى الملكة " صبيحة " وانشغل بأمور الحكم في مدينته الجديدة فأرسلت إليه تستدعيه لتعرف سبب هجره لها ودار بينهما هذا الحوار الذي بدا عتابا وانتهى حادا.

صبيحة: ماذا يشغلك عنا يا منصور.. وما كان يشغلك عن صبيحة شئ؟ هل نسيت عهد الإخلاص والوفاء؟

المنصور: مازلت عند عهدى وكل ما أفعله من أجل " صبيحة " ودعما لحكم ولدها، ولكن أعباء الحكم لا تدع لى وقتا.

صبيحة: لعلك تدرك أن أكثر الرجال الذين بلغوا قمة السلطة ملوا من كان سببا في بلوغهم النفوذ والسلطان.

المنصور: لولا المنصور ما بقى ملكك وما استقرت الخلافة في بيت ولدك، ولقضت الدسائس على حكم العرب والمسلمين في الأندلس.

صبيحة: أنسيت أننى التي جعلتك المنصور؟

المنصور: ما كنت أنكر الفضل عن أهله لكنك لا تنكرين أننى جعلت من الأندلس المفككة دولة موحدة لها جيش يدين للخليفة بالولاء وما ترينه من عز ورخاء بالأندلس ما كان يتم لولا المنصور.

وحاولت " صبيحة " أن تستحث ولدها للخروج إلى شعبه لكنه رفض، ولم تجد " صبيحة " أمام ذلك الوضع سوى الاستسلام، وقضت سنوات قضاها المنصور في الجهاد وهي قابعة في قصرها حتى جاءها من يدعوها للقاء المنصور الذي يحتضر، واهتز قلب الملكة الذي لا يزال ينبض بالحب للمنصور وهرعت إليه ناسية إساءته لها ووقفت إلى جواره تنظر إليه في أسى وهو يحتضر وقد أفسحت زوجته أسماء المكان وهي تدعوها أن تستغفر له، وأمسكت " صبيحة " بيد المنصور الباردة الساكنة بيدها المرتجفة وهي تقول:

- رحمتك يا رب.. اللهم اعف عنه واغفر له فقد والله عفوت عنه.

وعقب المنصور بصوت ضعيف:

- اغفرى لى يا صبيحة فلم أكن إلا بشرا وما صنعته من أجلك ومن أجل خير الأندلس.

ومات المنصور بين يدى صبيحة التي زفرت زفرة طويلة وقالت:

- ويل للأندلس من بعدك يا منصور.

* * *

أم البنين

كيــد النســاء

أم البنين

زوجة الوليد بن عبد الملك

هي زوجة الوليد بن عبد الملك وابنة عمة عبد العزيز - أخت عمر ابن عبد العزيز.

وفد الحجاج بن يوسف على الوليد بن عبد الملك في مقر خلافته بالشام فوجده في نزهة فاستقبله ولما رآه الحجاج نزل عن فرسه وتقدم نحوه.. وقبل يده وسار إلى جواره، وكان عليه درع وقوس عربية، فقال الوليد للحجاج:

- اركب يا أبا محمد.

فأجابه الحجاج في نبرة كلها خضوع ومسكنة:

- دعنى أستكثر من الجهاد في خدمتك يا أمير المؤمنين.

ولما وصلا دار الخلافة وجلسا أطالا الجلوس والحديث، وبلغ الخبر إلى أم البنين زوجة الوليد بأن رجلا عند زوجها وهو في عدة الحرب، ووصفه من نقل إليها الخبر بأن بيده رمح وعلى رأسه خوذة معدنية ووجهه معفر يحمل في وسطه سيفا صقليا وخلف ظهره كنانة قد غضت بالسهام والنبال.

خشيت أم البنين على زوجها وأرادت أن تطمئن وتعرف من ذلك الرجل المدجج بالسلاح في مجلس زوجها خشية أن يصيبه بسوء، فأرسلت جاريتها إلى الوليد تسأله من ذلك الأعرابى الجلف المدجج في السلاح عندك؟

وذهبت الجارية إلى الوليد على استحياء وحذر فأخبرته سرا بما قالت لها مولاتها، فأخبرها أن جليسه الحجاج وأمرها بأن تخبر أم

البنين بألا تخاف ولا تضطرب، لكن أم البنين راعها ذلك لما تعرفه عن الحجاج.

والتفت الوليد إلى الحجاج فقال له:

– أن ابنة عمى أم البنين تقول لى: ما مجالستك هذا الأعرابى الغارق في سلاحه! ألا تخشى غدرة منه؟

فأرسلت إليها وأخبرتها أنه الحجاج بن يوسف.

وبعد قليل عادت الجارية لتخبر الوليد مشاعر أم البنين.

– والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق وأهل الطاعة، والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلىّ من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف.

وذعر الحجاج ذعرا شديدا لرأى أم البنين فيه أو ربما لأنها عرته أمام نفسه وأمام الخليفة، وما يمكن أن يكون لذلك الرأى من أثر عليه لكنه أظهر جلدا مصطنعا وأخذ يتحدث مع الوليد ويحذره بصفة الناصح الأمين من النساء كنوع من الدفاع، فقال:

– يا أمير المؤمنين: دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة (لفظة فارسية تعنى الخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده) فلا تطلعهن على سرك ولا على مكايدة عدوك إن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندها لغيرها ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك.

ولما انتهى الحجاج من مقالته استأذن الوليد فأذن له فنهض وخرج إلى معسكره ودخل الوليد على زوجته أم البنين فحدثها برأى الحجاج في النساء وأخبرها مقالته عنهن، فأسرت أم البنين ذلك في نفسها ولم تبد شيئا لزوجها ثم تقدمت في استحياء للوليد وقالت له:

- يا أمير المؤمنين: أتسمح لى أن أطلب منك شيئا؟
- الوليد: وما هو؟
- أم البنين: يا أمير المؤمنين أحب أن تأمر الحجاج بن يوسف بالتسليم عليّ في الغد.
- الوليد: افعل إن شاء الله يا ابنة العم.

وفى اليوم التالى قدم الحجاج مبكرا على الوليد فلما جلس قال له الوليد:

- يا أبا محمد: اذهب إلى أم البنين فسلم عليها.

فقال الحجاج وقد علاه الوجوم:

- اعفنى يا أمير المؤمنين إن شئت.

فرد عليه الوليد مؤكدا:

- ويحك.. لابد من ذلك ولتفعلن.

فقال الحجاج مسلما لما سيحدث في هذا اللقاء:

- سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين.

وذهب الحجاج يقدم رجلا ويؤخر أخرى فهو يدرك قيمتها ويعرف من هي أم البنين ويعلم رأيها فيه ويعلم كذلك رأيها في أخيه محمد بن يوسف وما صار إليه ولكنه خفى عليه ما ستقول وما سيفسر عنه اللقاء.

علمت أم المؤمنين بقدومه فأمرت أن يظل فترة طويلة في انتظار لقائها، فوقف في ذلة أمام مقصورتها يضرب أخماسا فى أسداس، وبعد مدة طويلة أمرت الخادم بالإذن له فدخل لكنها لم تأمر له بالجلوس بل تركته واقفا على قدميه ولم تأذن له بالجلوس وابتدرته

قائلة من وراء سترها:

– إيه يا حجاج.. أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد الله بن الزبير ابن حوارى رسول الله ﷺ الصوام القوام المستغرق الساعات في الطاعات ذى المناقب الشهيرة الكثيرة وابن أسماء ذات النطاقين وأول مولود بالمدينة المنورة من المسلمين بعد الهجرة، وأنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وأخذت أم البنين تقرع الحجاج وتذكره ببعض فظائعه وجرائمه، وأبانت له قبح منظره وسوء مخبره وشراسة خلقه، ثم أتبعت ذلك بقولها:

– ويحك يا بن يوسف أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه وأهون خليقته ما ابتلاك برمى الكعبة بحجارة المنجنيق وقتل التقى النقى ابن ذات النطاقين، فأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم (التقيا في أربعة وثمانين موقعة انتصر بن الأشعث في ثلاث وثمانين والحجاج في واحدة) حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق ما يكون من أمرك وأوهن من بيت العنكبوت فأظلتك رماحهم وحجبتك عن الأخطار سيوفهم ونصرتك عزيمتهم وقهر الأعداء كفاحهم، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء فلطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن والحلى من أيديهن وأرجلهن وبعنه في الأسواق حتى أخرج في أعطيات أهل الشام إليك ولولا ذلك لكنت أذل من البقة.

– ويحك يا حجاج: إن ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك ذلك ولا مصغ إلى نصيحتك فإن كانت النساء يلدن مثلك كما ولدت أمك فما أحق بالأخذ عنك والقبول منك ولا مصغ إلى نصيحتك.

وحجم الحجاج بعد ذلك الدش البارد وفغر فاه ولم يجد جوابا على تقريظ أم البنين التي لم تتوقف عن تسميم بدنه وتفعل به ما لم يفعله الرجال، وقالت تعيره بفراره من غزالة الحرورية امرأة أبي الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بطل الخوارج، وقائدهم في عهد عبد الملك، والحجاج وقد ولدت في الموصل وكانت فارسة شجاعة، وقد خرجت مع زوجها شبيب سنة ٧٦هـ على عبد الملك بن مروان أيام ولاية الحجاج فكانت تقاتل في الحروب بنفسها حتى أن الحجاج نفسه هرب منها في بعض المواقع فعيره حطان بن عمران بذلك في قوله:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ::: فتخاء تنفر من صفير النافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ::: أم كان قلبك في جناحي طائر
صرعت غزالة قلبه بفوارس ::: تركت نواظرة كأمس الدابر

وبلغت غزالة من الجسارة وقوة القلب ما خلع قلب الحجاج.

ثم قالت أم البنين لجواريها:

- أخرجوه عني.

وهكذا جمدت دمه في عروقه وطردته شر طردة فأخرجوه لا يعرف الطريق لدهشته ولما ناله من أم البنين، فدخل على الوليد الذي رأى منظره وما هو فيه فسأله عن حاله فقال وهو عاجز عن ابتلاع ريقه:

- والله يا أمير المؤمنين ما سكتت أم البنين حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها.

* * *

كليوبترا

كيــد النســاء

كليوبترا
ملكة مصر

هي ابنة بطليموس الحادى عشر المصرى وقد خلفته كملكة سنة ٥١ مشاطرة العرش أخاها بطليموس الثالث عشر وكانت دائمة النزاع مع أخيها، وانتهى الأمر بطردها من مصر وكانت البلاد في ذلك الوقت تحت الحماية الرومانية، وكانت مصر في ذلك الوقت هي المصدر الرئيسى للقمح بالنسبة لرومانيا، وأقبل قيصر إلى مصر عقب هزيمة بومباى في فرسالوس سنة ٤٨، فوجد الحرب الأهلية ما تزال قائمة فيها، وكانت تحاول العودة إلى مصر فعمدت إلى الظهور فجأة أمام قيصر ملفوفة في سجادة - كما يزعمون - بحيث تستطيع التوسل إليه لمساعدتها في تحقيق غايتها، وأخبرته أن أخاها يريد أن يفتك بها فما كان منه إلا أن مشى بجحافله الرومانية لمحاربة جيش أخيها وانتصر عليه وانتحر أخوها غرقا في النيل لتتسلم كليوباترا ملك مصر دون منازع وتصبح سيدة بلاد الفراعنة.

في هذه الأثناء كانت قد نشأت علاقة حميمة بين قيصر وكليوباترا الرائعة، وأنجبت كليوباترا طفلا هو الابن الوحيد لقيصر، ولما كان متزوجا وكانت زوجته في روما فلم يكن بمقدوره الاقتران بكليوباترا ولكى تمنع الفضيحة في المهد وتجعل من ابنها ابنا شرعيا.

أمرت كليوباترا الكهنة بأن يعلنوا أن يوليوس قيصر ابنها ليس إنسانا، بل هو الإله آمون إله الشمس، وقد عاد إلى الأرض في جسد قيصر ليهب الملكة ولدا وأعلن ذلك سواء اقتنع الشعب أو اقتنعت الملكة بذلك.

لم يمض وقت طويل حتى قتل قيصر وخلفه القائد ماركوس أنطونيوس الذي لم يكن يفيق من السكر وأصبح أقوى رجل في الإمبراطورية الرومانية، فقاد جيوشه الجرارة إلى الشرق وكان عشقه وهيامه بكليوباترا يملك عليه حياته حتى أنه أهداها ساحلا فينيقيا بكامله وأتبعه بمقاطعة أريحا وجزيرتي قبرص وكريت، بل إنه أهداها في نهاية الأمر آسيا بأسرها وهو ما أقام روما وأقعدها وهو ما جعل الرومان يعلنون الحرب على أنطونيوس وكليوباترا التخلص من هذا الأمر، وأعلنت الحرب ودارت الدائرة على أنطونيوس وكليوباترا الذين تشتت جيوشهما وتحطمت على أيدى سبأ وعرفا أن تلك نهايتها، فانتحر أنطونيوس وخشيت كليوباترا أن تقاد إلى روما مهزومة مقهورة فانتحرت هي الأخرى بالسم.

* * *

رضيَّة

كيـد النســاء

رضيَّة
ملكة دهلى

ابنة السلطان شمس الدين وملكة دهلى من أعمال الهند عاشت في القرن السابع الهجرى.

كان أخوها ركن الدين أكبر أبناء السلطان حسن الطباع بعكس أخويه معز الدين وناصر الدين، وقد بلغ من تكبره وغروره أنه كان يعتبر كبار رجال الدولة وقوادها مجرد عبيد لأبيه، وحاول السلطان وحاولت أخته " رضية " مرارا تقويم سلوكه لكنه كان يزداد غرورا وتعاليا ولم يقبل بكلام رضية، بل واعتبر أن حديثها معه ونصيحتها له تعاليا منها عليه، فصمم أن يُخضعها هي أيضا لسلطانه وجبروته وإرهابه وأن يجبرها كما أجبر أخويه على الإذعان لجبروته وأوامره.

لم تيأس " رضية " من محاولة إصلاحه وظلت تحاول، لكن دون نتيجة، ولما رأى أبوها مواقفها الحكيمة ورجاحة عقلها وثق فيها واستخلفها في إدارة شؤون البلاد عندما خرج للحرب، ولما سأله أحد أمرائه عن سبب تولية " رضية " دون أبنائه من الرجال، قال:

– لأنهم انهمكوا في الملذات ففقدوا القدرة على تحمل المسئولية، ولن يقدروا على إدارة شئون الحكم وهي صاحبة عقل رجال صالح، وقلب رجل شجاع رغم أنها امرأة.

امتلأت نفس " ركن الدين " الأخ الأكبر حقدا على شقيقته وأبيه وشعر الوالد أن ابنه يمكن أن يقدم على مغامرة لكنه لم يكن يدرى من سيكون المستهدف بها هم أو ابنته التي سعت أن تواجه ثورته بالنصح والإرشاد وتبصيره بعواقب الأمور وأثناء ذلك انقسم الناس بين مؤيد لأن تتولى رضية شئون الحكم وبين معارض، واجتمع أهل الرأى واتفقوا على أن تحكم " رضية " وقبلت هي المهمة لكنها

رشحت أخوها الأكبر " ركن الدين " للعرش وقبل الشعب ذلك على مضض بعد أن طلبت منه أن يُقوم خلقه وأن يعينها في مهمتها، لكن " ركن الدين " لم يقابل الإحسان بمثله، وانتظر حتى استقرت الأمور ثم بدأ يفكر في التخلص من أخته التي يحبها الشعب واختارها على إدارة شئون الحكم لأنه كان يرى فيها السيف المسلط على عنقه والعقبة في طريق جبروته ووضع خطة للقضاء عليها والخلاص منها.

في جلسة له مع أخيه معز الدين باح له بسر المؤامرة متصورا قبوله وأن يشاركه في الأمر ويعاونه في الخلاص من أخته ليؤول الأمر لهما، لكن " معز الدين " غضب من تفكير أخيه وخرج من عنده ثائرا متوعدا، لكنه قبل أن يصل إلى الباب كان سيف أخوه " ركن الدين " أسبق إلى اختراق صدره حتى لا يخرج منه سره الذي لم يقتله أو يمنع انتشاره موت " معز الدين " وانتشر الخبر في كل " دلهى " وأسرعت " رضية " إلى مغادرة القصر والتخفى كى لا ينالها ما نال أخيها، ولكن لابد من التفكير في طريقة تتخلص بها منه، وتخلص الشعب من شروره " تتغذى به قبل أن يتعشى بها ".

ذات يوم خرج إلى صلاة الجمعة وأم الناس ليتملق عواطفهم متظاهرا بالتقوى والصلاح، ورأت " رضية " ذلك فرصة عظيمة لإخبار الشعب بالحقيقة وترك الأمر له ليعفوا أو ينتقم، ويعلن اختياره ويحدد مصيره، وكانت تعرف النتيجة فوقفت فوق أحد القصور المجاورة للمسجد تصيح بصوت عال مستغيثة بالشعب تحتمى به من قاتل أخيه، والذى يسعى لقتلتها هي أيضا، ويحاول خداع الشعب بتلك التقوى الكاذبة، وعرض الشعب صوت رضية، وانطلقت الجموع الكارهة للسلطان المتغطرس قاتل أخيه تهدر غضبا وتتدافع للقبض عليه ثم تقتله بعد ذلك تنفيذا لشرع الله.

* * *

تزوهس

كيـــد النســـاء

تزوهس
إمبراطورة الصين

أشرفت الإمبراطورة الأم بنفسها على مسابقة ملكات الجمال من بين ستين فتاة تم ترشيحهن ليكن محظيات في قصر الإمبراطور وأسفرت التصفية الأولى للإمبراطورة الأم عن اختيار ثمان وعشرين فتاة ثم أجرت بينهن تصفية نهائية لتفوز " يهونلله " بالمركز الأول.

كانت " يهونلله " ابنة الأربعة عشر ربيعها ابنة أحد كبار الموظفين المنشوريين مات أبوها ولخوف أمها عليها لم تكن تجعلها تتجاوز جدران البيت إلا إلى الحديقة، فقضت وقتها في قراءة الأدب والفن والتاريخ، ولم تكن الفتاة تدرى أن أمها تحلك أن تكون ابنتها الجميلة إحدى نساء المدينة المحرمة في بكين - إحدى الزوجات الثانويات للإمبراطور - رغم أنها ليست من أسرة ملكية أو حتى إحدى محظياته.

بدأت أحلام الأم تتحقق حين أصدر الإمبراطور منشورا يقضي بأن تحضر إلى الحريم كل فتاة منشورية بلغت سن الرشد وتم اختيار ستين فتاة كانت هي من بينهن، أخذهن ضابط الحرس المنشورى الشاب وجنوده إلى المدينة المحرمة، وفى الطريق هاجمهم برابرة الشمال لاختطافهم، لكن الضابط وجنوده تصدوا لهم وقهروهم وقضوا عليهم، وواصل الموكب مسيره إلى بكين وبعد أن تم اختيارها دخلت بها الإمبراطورة الأم على الإمبراطور لتقدمها كمحظية له.

رأت الإمبراطور ينحنى أمام الإمبراطورة الأم فعرفت مكانتها لدى الإمبراطور ولذا سعت من البداية لكسب رضاها، وبالفعل استطاعت كسب رضاها ورضا الإمبراطور أيضا بجمالها الأخاذ وثقافتها الواسعة، وكان نتيجة ذلك أن رقتها الحماة إلى مقام المحظية الأولى بين الحريم الإمبراطورى.

كان الإمبراطور الشاب خامل وكسول أصيبت البلاد في عهده بالضعف وأصيب الناس بخيبة الأمل وأحسوا أنه سوف يكون آخر الأباطرة من أسرة المانشو بسبب ضعفه، ليس بسبب الضعف فقط ولكن لأنه لم ينجب وليا للعهد.

دفع ضعفه أحد الثوريين الوطنيين بمحاولة انقلاب عام ١٨٥٣ واستولى بالفعل مع باقى الثوار على مدينة نانكنج وبدأ الزحف على بكين وحين رأى الإمبراطور الضعيف ما فعله الثوار فكر في الهرب وشعرت " يهونلله " بأن أحلامها تكاد تنهار قبل أن تتحقق، فحاولت منع الإمبراطور من الهرب، وتشجيعه للدفاع عن عرشه وتذكرت ذلك الضابط الشاب " يوكنج " الذي دافع عن المحظيات الستين في طريق حضورهم إلى القصر الإمبراطورى وطلبت من الإمبراطور أن يرسل في استدعائه ليتولى قيادة قوات الإمبراطور لمواجهة الثوار، ونزلت إلى الشعب تدعوه لحماية الإمبراطور وبالفعل استطاعت " يهونلله " أن تكسب حب الشعب كما كسبت قلب الإمبراطورة الأم والإمبراطور من قبل، واستطاع " يوكنج " أن يخمد الثورة وأصبح موضع تقدير ورضا الإمبراطور.

توالت الأفراح على " يهونلله " بإنجابها ولى العهد وكانت نتيجة ذلك ترقيتها من جانب الإمبراطورة الأم إلى مقام الزوجة الأولى ليصبح مسماها بعد ذلك " تزوهس " ثم ماتت الإمبراطورة الأم بعد ذلك

وأصبحت هي كل شئ في الإمبراطورية يثق الجميع في القصر وخارجه بحكمتها ورجاحة عقلها حتى أن الشعب لقب " بوذا العجوز ".

أثناء اختيار المحظيات الإمبراطوريات الستين شعرت بالراحة لإحدى المحظيات أثناء الرحلة وأصبحتا صديقتين وكانت هي أقرب المحظيات إلى قلبها بعد ذلك وهذا ما جعلها تطلب من الإمبراطور أن يرقيها إلى مقام الزوجة الثانية عندما أصبحت هي الزوجة الأولى وأطلق عليها لقب " تزو آن ".

رأى الإمبراطور الكسور أن " تزوهس " تتمتع بالحكمة ورجاحة العقل فجعلها مستشارة البلاط في كل أمور الإمبراطورية وكانت في ذلك الوقت لم تتجاوز الخامسة والعشرين، وأصيب الإمبراطور بمرض أقعده لتصبح هي صاحبة الأمر والنهى في الإمبراطورية خاصة وأنها أم ولى العهد ولم يكن من السهل أن تحكم قبضتها على سدة الحكم في الإمبراطورية بحجم الصين بها ما بها من الاضطرابات والمؤامرات والتناقضات وهو ما اضطرها إلى القسوة والانتقام من القوى المتناصرة بكل الوسائل لكنها فوجئت بما لم يكن في الحسبان وهو معاودة الإنجليز والفرنسيين طلبهم بفتح الصين بكاملها، فهموا بإدخال الأفيون إليها وجعل تجارة الأفيون مشروعة، وكانوا من قبل قد شنوا حربا على الصين لنفس السبب، واستولوا على " كانتون " وأرسلوا حاكمها مقيدا بالأغلال إلى الهند وزحفوا إلى بكين، وهرب الناس والإمبراطور الذي رفض الاستماع إلى نصيحة " تزوهس " بالبقاء في العاصمة لحماية شعبه لكنه رفض وواصل هروبه هو وأمراءه ومحظياته، فلم تقبل " تزوهس " بهذا الهوان وطلبت من الإمبراطور أن ينيبها في جميع حقوقه الرسمية ففعل ذلك لعدم وجود حل آخر.

بعد أن أصبحت " تزوهس " هي المتصرفة قانونا أصدرت مرسوما بجمع الجنود من الأقاليم للدفاع عن المدينة المحرمة ومواجهة الأعداء، لكن الأمير " جونج " أخ الإمبرطور كان قد وقع معاهدة مع المعتدين سمح بموجبها لهم بممارسة تجارتهم في جميع أنحاء الصين فأعلنت رفضها لكل ذلك وعزلته من منصبه.

في ذلك الوقت كان الإمبراطور على وشك النهاية بعد أن ساءت صحته والتف حوله ثلاثة من الأمراء الطامعين في الوصاية على ولى العهد من " تزوهس " القاصر، وكانوا يعلمون أنه من الصعب الوصول إلى ما يحلمون به إلا بإبعاد " تزوهس " أو الإيقاع بها، وكان لابد للأمر من مكيدة فاتهموها بأنها على علاقة بالضابط " لوكونج " الذي كانت الإمبراطورة تثق فيه وتقربه وألحوا على الإمبراطور أن يعتقلها لكن الإمبراطور رفض في بداية الأمر ثم وافق على أن يؤخذ ولى العهد منها ويعهد بتربيته إلى زوجة الأمير " لى " أحد الثلاثة الطامعين في الوصاية بعد أن أحاطوا الإمبرطور بالدسائس والنميمة عن سلوك الإمبراطورة الشائن الذي يتحدث الجميع عنه ويجعلها غير جديرة بالوصاية على ولى العهد، وحاولت الإمبراطورة لقاء الإمبراطور للدفاع عن نفسها لكنهم كانوا قد ملأوا قلبه بالفتنة فرفض لقاءها.

أدركت الإمبراطورة أن الحل الوحيد لمواجهة كيدهم هو التصرف بنفس الطريقة وبدأت في استخدام قدراتها النسائية في التخطيط الكيدى فأرسلت إلى الأمير " جونج " ليعود إلى منصبه وطلبت منه إرسال جيش إليها، فأدرك المتآمرون ما تعده لهم فألحوا على الإمبراطور أن يصدر مرسوما بتعيينهم أوصياء على ابنه بعد موته، وتوفى الإمبراطور بعد مدة وأصبح ابنه " تونج شى " إمبرطورا على البلاد، وهم أوصياء عليه فبدأوا الحلقة التالية من كيدهم ضد "

تزوهس " فأصدروا قرارا بتعيين الزوجتين " تزوهس "، " تزو آن " في مقام واحد وأن يطلق عليهما معا لقب الإمبراطورة الكبيرة، وذلك خوفا من موالاة جيوش منشوريا " لتزوهس " وأخذ المتآمرون يصدرون المراسيم التي تخدم أغراضهم لكن " تزوهس " كانت تخفى خاتم المملكة ولم تسلمه لهم، وهذا ما جعل المراسيم معدومة القيمة، فاتهم الناس الأمراء الثلاثة بالتزوير والخداع، وثاروا عليهم وكانت " تزوهس " في الوقت نفسه تغذى هذه الأفكار، وتكشف فساد هؤلاء الأمراء وإهدارهم لأموال الشعب واستيلائهم عليها يعاونها في ذلك " لوكنج " ضابطها المخلص، ونجحت خطة " تزوهس " وعقد الأعيان اجتماعا أقاموا فيه الإمبراطوريتين وصيتين على العرض وعلى الإمبراطور القاصر على أن تجلسا معا على العرش مع إسدال ستار يكون حاجزا يحجبها عن أنظار الوزراء.

وبعد الجنازة مباشرة ضربت " تزوهس " ضربتها التي فاجأت بها الجميع بإقالة الأمراء الثلاثة، وحين اعترض الأمير " لى " أمرت بالقبض عليهم ومصادرة أملاكهم وعقدت لجنة إمبرطورية لمحاكمتهم، ورأت اللجنة أنهم يستحقون الموت بالتعذيب، لكنها كانت رحيمة فسمحت لهم بالانتحار.

ولأن " تزوهس " امرأة ذكية كانت تصدر المراسيم باسم ابنها لعلمها أن حكم المرأة قد يغضب الرجال - رغم أنها الحاكم الفعلى للبلاد - وتظهر هي في الأمور التي تحتاج إلى عطف أو منح، حتى أن الشعب دعاها بالأم العطوف رغم أنها طوال فترة حكمها كانت مجردة من الرحمة.

حتى الأمير " جونج " الذي أنقذها وأنقذ عرشها لم يسلم من انتقامها، فقد أرسلت " خصيها " يجمع الضرائب لكنه كان متعسفا قاسيا حتى

ضج منه الحكام وأرسلوا الشكاوى ضده إلى الأمير " جونج " فاتجه إلى شريكتها " تزو آن " وإصدار مرسوم بقطع رأس الخصى بلا محاكمة حتى لا يعطى " تزوهس " الفرصة للاعتراض وحماية " الخصى " لكن " تزو آن " رفضت في بدء الأمر خوفا من غضب شريكتها لكن جونج استطاع إقناعها ولم تعلم " تزوهس " إلا بعد تنفيذ المرسوم، وحين علمت " تزوهس " منعت شريكتها من التوقيع على المراسيم وأمرت بالقبض على الأمير " جونج " مدعية أنه يدبر لخيانة ونفته خارج المدينة المحرمة.

بلغ ابنها الإمبراطور " تونج شى " سن الرشد وتنازلت الوصيتان له عن حقوقهما واختارت له الإمبراطورة الأم زوجة شابة وابتعدت عن شئون الحكم لكنها رأت أن ابنها خليعا متغطرسا لا يحترمها ولا يستشيرها في الوقت الذي يلجأ فيه إلى " تزو آن " ويأخذ برأيها واكتشفت أيضا أن التي تشجعه على ذلك وتساعده هي زوجته التي اختارتها له بنفسها، لكن الأمر لم يدم أكثر من ثلاثة أعوان ليترك الإمبراطورية بكاملها إلى مثواه الأخير وتلحق به زوجته الشابة - كما أعلن - منتحرة في ظروف ولأسباب مجهولة دون أن يكون لهما وليا للعهد.

كانت الإمبراطورة الأم مهووسة بالحكم وخشيت أن يزول ملكها لأن ابنها لم ينجب لذلك زوجت ابنة أختها من الأمير " شون " أحد أبناء أسرة " المانشو " وأنجبت ابنا ذكرا وكان ذلك الطفل هو مسمار جحا فقد دعت إلى عقد جلسة عاجلة بعد وفاة ابنها دعت فيها إلى تعيين ذلك الطفل وريثا للعرش وعاونها في ذلك قائد حرسها الضابط " لوكنج " وأنصاره وأرسلته لإحضار الوليد الذي كان في القصر قبل أن يتحرك المعارضين، وصالحت " تزوهس " شريكتها وعادا لممارسة الوصاية على الإمبراطور الصغير، وهكذا استطاعت "

تزوهس " الاحتفاظ بمقعد الإمبراطورة.

شعر " لوكنج " أنه هو الذي استطاع أن يعاون الإمبراطورة في الحفاظ على العرش وبدأ في معاملة " تزو آن " بفظاظة وادعاء ألفاظ لنفسه لا يستحقها، واشتكت " تزو آن " لـ " تزوهس " من عجرفة " لوكنج " واتهمتها أنها هي السبب في ذلك بمساندتها له حتى بلغ به الأمر أن يتصرف وكأنه هو الإمبراطور الفعلى للبلاد، وازداد الشجار بين المرأتين وآثرت " تزو آن " أن تبتعد قليلا عن مسرح الأحداث، لكن تزوهش حملت إليها الكعك وذهبت لمصالحتها وتطييب خاطرها - هذا ظاهر الأمر - لكن الحقيقة أن مرضت بعد هذه الزيارة مرضا شديدا ومات ليتردد في القصر بعد ذلك أن الكعك كان مسموما، ورغم خلاصها من شريكتها تفكر فيما قالته وتنبهت بالفعل لخطورة " لوكنج " ورأت أن دوره قد انتهى ولأنه ساعدها كثيرا فإنها كانت رحيمة به وأمرته بالانتحار فقد تقديرا لخدماته الجليلة.

استمرت " تزوهس " تحكم البلاد بمفردها حتى بلغ الإمبراطور الجديد سن العشرين فسلمته مقادير الحكم وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين فآثرت الراحة وابتعدت تاركة كل الأمور للإمبراطور الجديد وأخذت تنفق ببذخ لكنها كانت تعانى من الفراغ الذي لم يدم طويلا، فأثناء احتفالها بعيد ميلادها الستين عام ١٨٩٤ ابتدأت الحرب بين الصين واليابان دون أن يأخذ الإمبرطور رأيها وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها تقسيم الصين وتقطيع أوصالها بعد انتصار اليابان في حربها التي تولتها بالحصول على مقومات الثورة الصناعية وقامت حركة مؤيدة لذلك وأصدر الإمبراطور عدة مراسيم للسير بأساليب الغرب مؤيدا تلك الحركة، فجن جنون الإمبراطورة وساءت العلاقة بينهما وسعى الإمبراطور للقبض عليها واعتقالها في

جزيرة صغيرة بتهمة الإسراف وتبديد أموال الدولة، وعلمت " تزوهس " التي كانت لا تزال تحتفظ بعيونها وآذانها تراقب وتسمع وتعد أنفاسه، فأمرت هي بالقبض عليه وإيداعه السجن في أحد القصور، ونقض مراسيمه لتمسك من جديد بمقاليد الحكم.

في عام ١٩٠٠ قامت في الصين حركة " الملاكمون " البوكسرز بعد أن ضاق الصينيون من تدخل الأجانب الذين أطلق الإمبراطور يدهم في كل شئ واستطاعت " تزوهس " أن توجه جهودهم وغضبهم لمقاومة الغزاة بدلا من مواجهتها لكن الحرة دخلها الغوغاء يذبحون الأجانب بلا تفريق وهو ما دعا الجيوش المتحالفة إلى مهاجمة بكين مرة أخرى، ولم تجد " تزوهس " إلا الهرب بعد أن دخلت جيوش انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأمريكا إلى بكين وسلبتها وأحرقتها انتقاما لقتل مواطنيها.

عاشت تزوهس حياة الذل والفاقة أثناء هربها وحاولت الانتحار بعد أن انتحر حوالى خمسمائة من نساء الطبقة العليا، لكن المحيطين بها أقنعوها بالتراجع والموافقة على عقد صلح لحماية البلاد، وعادت الإمبراطورة لتواصل حكمها للصين في ظل الظروف الجديدة.

وفى عام ١٩٠٨م أثناء مرضها دبرت موت الإمبراطور السجين " كونج " ليخلفه على العرش ابن أخيه الصغير " بوبى " وتبقى هي وصية على العرش أو بمعنى أدق الإمبراطورة الفعلية، لكن الموت كان أسرع من أن تتحقق رغبتها، ففى نفس اليوم الذي تم تعيين الإمبراطور الصغير فيه وتعيينها هي وصية على العرش وافتها المنية وأسدل الستار على واحدة من أشد نساء الأرض ضراوة وكيدا.

* * *

سالومى

كيــد النســاء

سالومى

ولد النبى يحيى في نفس العام الذي ولد فيه المسيح عليه السلام، وكان تقيا صالحا منذ صغره، وحين كبر كان عالما في الشريعة وتفهم التوراة، وكان يدعو الناس إلى التوبة والمغفرة ويعمدهم لذلك في نهر الأردن، ولهذا أسماه الناس " يوحنا المعمدان " وقد عمّد المسيح عليه السلام.

كان ملك اليهود في فلسطين آنذاك " هيردوت انبتياس " ابن " هيروت الكبير " ورغم أنه كان متزوجا إلا أنه وقع في حب زوجة أخيه " فيلبس المحارب " وأقام معها علاقة آثمة أثمرت عن فتاة جميلة، وحاول الملك أن يجعل تلك العلاقة الآثمة تأخذ شكل المشروعية، فسأل أحبار اليهود عن ذلك ووافقوه في رغبته إلا " يحيى " الذي عارض هذه العلاقة وقال: إنها تعارض تعاليم التوراة، وطلب من الملك أن ينبذ هذه العلاقة، وخاف الملك من تأليب الناس الذين يحبون " يحيى المعمدان " ويثقون فيه وفى كلامه وهذا ما دفعه للقبض على " يحيى " وإيداعه السجن ظنا منه أن " يحيى " يمكن أن يضعفه السجن والتعذيب ويجعله يغير رأيه، فأبقاه في السجن لمدة عام محاولا استمالته لتغيير رأيه باللين تارة والتوعد والتهديد والتعذيب تارة، لكنه لم ينل منه ما أراد.

ولم يجد الملك حلا سوى قتل أخيه حتى يضفى المشروعية على علاقته بزوجة أخيه تفاديا لفتوى " يحيى " وأخرجه من السجن ليحصل منه في ظل الظروف الجديدة على الفتوى التي تمنح المشروعية لتلك العلاقة، لكن " يحيى " قال كلمته الشهيرة:

- لا يمكن معالجة الشر بالشر ولا يمكن معالجة الخطأ بالخطأ.

كانت النتيجة أن أعاده إلى السجن مرة أخرى وحاول بمكيدة نسائية تلويث سمعته والحصول على الفتوى المرغوبة.

عهد إلى " سالومى " ابنة أخيه بهذه المهمة وكانت رائعة الجمال، ولعبت " سالومى " دورها بإتقان كبير وحاولت إغواءه بكل الطرق داخل سجنه لكنه أبى وطلب منها الاستغفار والعودة إلى الله، فشعرت " سالومى " أنه أهان أنوثتها فدنت منه وحاولت أن ترتمى بين أحضانه فدفعها عنه، لكنها كانت مصرة فأعادت الكرة مرة أخرى في محاولة لاحتضانه وتقبيله بالقوة، فأعاد دفعها وهو يصرخ فيها " لا تلد الفاجرة إلا فاجرة مثلها ابتعدى عنى ".

شعرت " سالومى " بجرح كرامتها بعد أن رفضها " يحيى " وهي على تلك الدرجة من الجمال التي يتمناها أى رجل، وأيضا لأنه سبها فأرادت أن تثأر لكرامتها وتنتقم منه.

مرت عدة أيام شعرت فيها " سالومى " بالمذلة ولم يكن يشغلها سوى كيفية الانتقام من " يحيى "، وأثناء احتفال عمها الملك بعيد ميلاده خرجت سالومى إلى الحفل مكتملة الزينة في أبهى صورها لترى تأثيرها على الرجال الموجودين وتعيد إليها ثقتها بنفسها، فكان أول القلوب التي غزتها قلب عمها الملك نفسه وطلبها للرقص معه لكنها رفضت وهذا ما زاد إصراره على النيل منها، ووجدت في ذلك فرصة للانتقام من " يحيى ".

حين عجز الملك عن النيل منها طلبها للزواج لكنها رفضت عرضه إلا إذا نفذ لها ما تريد، ولم يجد الملك الفاسق إلا الموافقة على شروطها قبل أن يعرفها أو يناقشها فيها، فقال لها دون أن يفكر بعد أن أعياه الشوق:

– أنا مستعد أن أنفذ لك ما تشائين دون مراجعة أو مناقشة أو إبطاء.

لم تكن تريد " سالومى " سوى الانتقام من " يحيى " وتشاورت مع أمها في الأمر فهى رفضها " يحيى " وأهانها وأمها رفض علاقتها بالملك وفسقها وبالتالى اتفقت الأم وابنتها على الانتقام من " يحيى " ولم يكن يكفيهما سوى رأس " يحيى " وأخبرت " سالومى " الملك أن مهرها رأس " يحيى " ووافق الملك السكير على طلبها فورا وأمر جنوده أن يحضروا " يحيى " من سجنه إلى قاعة الحفل، ثم أمر السياق أن يفصل رأسه عن جسده، وقام الملك وأخذ رأسه ليقدمها إلى سالومى التي حملتها وقدمتها لأمها التي كانت تجلس بجوارها لكن الأم لم تكتف بمقتل " يحيى " فأخذت تنخر لسانه بالإبرة لرفض الاعتراف بخطيئتها لكن تلاميذ النبى يحيى دخلوا القاعة وأخذوا الجثمان والرأس من بين يدى الملك وجنوده ودفنوه في القدس، ورغم ما حدث للنبى " يحيى " لم تنل " سالومى " ولا أمها الفتوى التي أرادتها كلا منهما.

* * *

الأميرة نازلـى

كيـد النســاء

الأميرة نازلى

كان الخديوى عباس يتولى منصب " الكتخدانية " في عهد جده محمد على واشتهر بقسوة القلب والميل إلى إرهاق الرعية وهو ما حمل جده على توجيه اللوم إليه عدة مرات، وحين ولى إبراهيم باشا ضاق ذرعا بقسوته فاضطر للهجرة إلى الحجاز حيث بقى هناك إلى أن توفى إبراهيم باشا وعاد عباس إلى تولى الحكم باعتباره أكبر الأبناء سنا.

كان أول شيء يفعله هو استبعاد مستشارى جده وعمه من الوطنيين والأجانب وحارب التعليم وأغلق معظم المدارس بسبب جوادين كان قد أهداهما إليه شريف مكة لابنه وكان اسمهما " الشعلوانى والأحمرانى " وبسببها أمر بإغلاق مدرسة الطب البيطرى وطرد الحكماء البيطريين من وظائفهم ونزع رتبهم ونياشينهم.

كان ضيق الأفق مختل العقل يسلب أراضى الفلاحين ويتصرف في أموال البلاد باعتبارها أمواله الخاصة فينفقها على الخدم والحشم والعبيد والغلمان والشمشرجية ويقضى معظم أوقاته بين جياده وكلابه، أما نسائه فكان يجلدهن ويغرقهن في النيل، وقد بنى خلال فترة حكمه التي لم تتجاوز الخمس سنوات ونصف العديد من القصور في أماكن بعيدة عن العمران.

وبسبب سلوكياته غير السوية قضى الخديوى عباس نحبه بمكيدة نسائية من عمته نازلى التي ألزمها القصر حتى يأتيها أمره بدعوى تآمرها عليه إثر وشاية من إحدى معشوقاته الروميات هي وعمه سعيد الذي ألزمه البقاء في سراى القبة بالإسكندرية ورضى سعيد بتحديد إقامته الجبرية، ولكن معرفة نازلى الجديدة بعقلية ابن أخيها وإدراكها لخبله ولوثة عقله جعلها تغامر بالفرار بحياتها إلى الآستانة

مع عدد من أفراد الأسرة.

علم عباس بالأمر فشن عليهم حربا شعواء بدعوى عدم خضوعهم له وتآمرهم عليه وشوه سمعة عمته واتهمها بالسقوط في علاقات مريبة، ورغم مرور السنين ظلت نازلى تشعر بعدم الأمان والخوف على حياتها من أن يطالها عباس ويقضى عليها، ولم تجد وسيلة لتخليص نفسها من هذا الخوف سوى الخلاص من عباس نفسه.

علمت نازلى أن عباس يسعى إلى التخلص من عمه سعيد ليتولى من بعده ولده " إبراهيم إلهامى " فبدأت تفكر في طريقة تتخلص بها من عباس قبل أن يفعل ذلك وأن يتم ذلك في هدوء.

اشتغلت ماكينة الكيد النسائي حتى تفتق ذهنها عن فكرة جهنمية استغلت فيها عشق عباس للغلمان فأرسلت مملوكان من غلمانها إلى القاهرة ليباعا في سوق الرقيق، وكان المستهدف أن يراهما وكيل عباس وأتباعه ويأخذاهما إلى القصر وهو ما حدث بالفعل، فلما رآهما عباس أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلا وبهذا يكون قد هيأ لهما الظروف لتنفيذ الخطة التي وضعتها لهما عمته " نازلى "، وأخذ المملوكان يدبران الأمر بينهما حتى أتى دورهما في الحراسة، وبينما كان أحد الغلامين لا يزال في غرفة نوم " عباس " تلبية لرغبته اقتحم الثانى الغرفة واشتركا معا في قتله وهو على فراشه دون أن يتمكن من الاستغاثة أو الدفاع عن نفسه ونزلا إلى الإسطبلات وطلبا جوادين بحجة قضاء حاجة لمولاهما، ولم يشك بهما السائس فسلمهما الجوادين ليفرا بهما إلى الآستانة وينالا مكافأتهما السخية من الأميرة نازلى.

* * *

قوسيم

كيـد النســاء

قوسيم

زوجة السلطان أحمد الأول

كان من عادة السلاطين العثمانيين الخلاص من أخواتهم بالقتل فور إنجابهم حتى تظل السلطة لأولادهم وخشيت السلطانة " قوسيم " زوجة السلطان أحمد الأول صاحب الجامع الأزرق باستانبول أن يتم تولية ابنه " عثمان " من زوجته الأولى " ماخفيروز " السلطنة بعد وفاته وأن يقوم بقتل أبنائها " إخوته " بعد وفاة أبيه السلطان أحمد بعد أن ينجب ليحتفظ هو أيضا بالحكم والولاية لأولاده.

استخدمت السلطانة نفوذها مع السلطان المحتضر وسعت لاستبعاد ابنه عثمان لحساب عمه مصطفى المختل عقليا والذى ليس له أبناء لتتيح لنفسها فرصة السيطرة على أمور الحكم فترة أطول حتى يكبر أبناؤها ويتسنى لأحدهم ارتقاء العرش، وبالفعل نجحت في ذلك إلا أن رجال القصر لم يمكنوها من إكمال مؤامرتها وخلعوا السلطان المختل بعد ثلاثة أشهر بتحريض من " أغاس الحريم " في القصر الذي نادى بعثمان أكبر أبناء السلطان أحمد ليتولى السلطنة باسم عثمان الثانى، وكان السلطان الصغير الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة قوى الشخصية يعرف كيف يتصرف في مثل هذه الأمور وحتى لا يكون لأحد سلطان عليه ويأمن المكائد النسائية والمؤامرات تخلص من " النحاس الحريم " وفرض العزلة على السلطانة وعين صدرا أعظم جديدا وغير المسئولين على " تتريك " الجيش والشرطة والإدارة ولجأ في ذلك إلى عناصر أناضولية.

وجدت السلطانة في ذلك فرصة لاستعادة نفوذها باستثارة معارضى السلطان ممن خسروا مواقعهم خاصة من العسكريين الانكشارية الذين تمردوا مطالبين بتنحية مستشارى السلطان الذي بغض طلبهم

وكان ذلك سببا في تفجر الموقف وهجومهم على القصر واقترابهم عن السلطان السابق وتنصيبه من جديد وبذلت قوسيم جهدها للقبض على عثمان وإعدامه بعد ذلك حتى تنهى المشكلة من جذورها.

فرض الإنكشارية سطوتهم على البلاد وانتشرت الفوضى واستغلت " قوسيم " ضعف السلطان وجنونه وسيطرت على كل شئ لتدير دفة الحكم في البلاد وتعين صدرا أعظم من أنصارها وتتخلص بعد ذلك تباعا من مدبرى الانقلاب الذين عملوا لحسابها حتى تأمن شرهم، ثم انتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى للمرة الثانية وتنصيب أكبر أبنائها البالغ من العمر أحد عشر عاما سلطانا على البلاد باسم " مراد الرابع " لتستقر السلطة بين يديها واستمر الحال على ذلك عشر سنوات، أمسكت فيها بزمام الأمور بيد من حديد بمعاونة رجالها في القصر، فكانت تعين من تريد وتعزل من لا تريد حسب هاوها خاصة منصب الصدر الأعظم حتى أنها تخلصت من ثلاثة منهم بالقتل لعدم اطمئنانها إن بقوا أحياء، وليس الصدر الأعظم فقط بل إن منصب " الباشدفترداو " (وزير المالية) المسئول المالى للدولة تغير تسع مرات وكانوا في الغالب ضحايا أو كباش فداء للمشكلات المالية والاضطرابات.

أمور كثيرة واضطرابات مختلفة مرت بالسلطنة استطاعت أن تتغلب عليها بالعنف والقمع في أغلب الأوقات واستمر مراد الرابع في الحكم الذي كانت أمه تعاونه فيه حتى مات في الثانية والعشرين، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم الأول، وحاولت أمه معاونته لكنه كان مريضا عاجزا منغمسا في شهواته، وهذا جعل الأمور بالكامل في يد السلطانة.

ازدادت دسائس الحريم في القصر وازداد القلق من مستشار السلطان " جينجى خوجا " الذي كان ينافسها أحيانا من خلال السلطان خاصة

في تعيين بعض ذوى المناصب العليا، كالصدر الأعظم وعزله حتى كادت الأمور تفلت من يدها، وتضيع السلطنة في الوقت الذي يقضى فيه السلطان إبراهيم كل وقته في شهواته وملذاته النسائية.

انقض الإنكشارية على القصر متمردين ليخلعوا السلطان ويقتلوه حيث تشير كل الدلائل أن أمه وراء ذلك ليتولى من بعده " محمد الرابع " ابن " إبراهيم " وحفيد " قوسيم " وهو في السادسة من العمر، وتحاول " قوسيم " الاستمرار في لعب نفس الدور باسم حفيدها، لكن الأمر كان قد أفلت من يدها لأن الحفيد " السلطان الجديد " كانت أكثر قدرة على الكيد، وكانت تعلم الكثير من الحقائق التي كانت تلقنها لابنها الذي أعلمته بقتل جدته لأبيه - ابنها - من أجل السيطرة على الحكم، وتستطيع " خديجة طورخان " أم السلطان أن تدبر لها من يقتلها خنقا ليتخلص الجميع من شرها.

* * *

أمامة المحتالة

كيـد النسـاء

أمامة المحتالة

كان لبشار بن برد الشاعر العباسى المعروف مجلس يجلس فيه بالعشى يقال له البرادن فدخل إليه نسوة في مجلسه هذا فسمعن شعره وحاورنه وأخذ النساء يترددن عليه ويطلبن منه إنشاد الشعر، ولأنه كان كفيفا اعتمد على أذنه في تعويض حاسة البصر ليرى بأذنيه، ولذا عشق إحدى النساء اللائى كن يحضرن المجلس وطلب من غلامه أن يخبر المرأة بعشقه لها حين تنصرف إلى منزلها، و أخذ يؤكد على الغلام الحرص ألا يراه أحد أو يعرف بحبه، وفعل الغلام ذلك فلم تجبه المرأة إلى ذلك فقد كانت متزوجة وكان هو دميما كريها ينفر منه الجن وليس النساء فقط.

لم ييأس بشار بل طلب من الغلام أن يتبعها إلى منزلها ويعرفه ثم يأخذه بعد ذلك إليها ففعل الغلام وأخذ بشار يتردد عليها ويلح في لقائها حتى سئمت وأخبرت زوجها الذي طلب منها أن تجيبه إلى طلبه وتستدرجه إلى بيتها، فوجهت " أمامة " امرأة إليه تستدعيه وتمنيه بنوالها، وجاء بشار يطوى الأرض فرحا لا يدرى ماذا ينتظره.

كانت " أمامة " قد دبرت مع زوجها أن يكون موجودا عندما يأتى بشار ليلقناه درسا لا ينساه، ودخل بشار البيت وجلس يحلم باللقاء وترفرف في رأسه شياطين الشعر واصفة له المتعة التي سينالها من المرأة التي حلم بلقائها وها هو في حضرتها، فابتلع ريقه وهو يسألها:

- ما اسمك بأبى أنت وأمى؟

فقالت: أمامة.

قال:

أمامــة قــد وصــفت لنـا بجسـم ::: وإنـــا لا نـــراك فألمســـينا

ولـم تتراجع المرأة أو تـرفض طلبـه بـل أمسكت بيده وبدلا من أن تضـعها عليهـا ليلمسـها وضـعتها علـى (....) زوجهـا فوثـب قائمـا مرعوبا من هول المفاجأة وقال:

علـى أليَّـه مـا دمـت حيـا ::: أمسـك طائعـا إلا بعـود

ولا أهـدى لقـوم أنـت فـيهم ::: سـلام الله إلا مـن بعيـد

فخيـر منـك مـن لا خيـر فيـه ::: وخيـر مـن زيـارتكم قعـودى

وقبض زوجها عليه وقال متوعدا إياه:

- والله لأفضحنك.

فرد بشار وهو يرتجف من الرعب:

- كفاني فديتك ما فعلت بى والله لست عائدا إليها أبدا وحسبك ما فعلت.

وترك بشار البيت هاربا يتخبط بعصاته في الطريق محاولا الفكاك منهما قبل أن يفتضح أمره، بينما أمامة وزوجها يضحكان عليه.

* * *

تندو

كيــد النســاء

تندو

ملكة العراق

ابنة حسين ابن أوس ملكة العراق والجزيرة عاشت في أواخر القرن الثامن الهجرة، نشأت يتيمة وكفلها عمها " أحمد بن أويس " الذي كان سلطانا للعراق والذى كان قد أعد العدة لمواجهة " تيمور لنك " الذي كان يعد له خديعة لاحتلال بغداد دون حرب حيث أرسل إلى السلطان أحمد يطلب مصاهرة، وسعد السلطان بتلك المصاهرة المزعومة وصدق " تيمور لنك " الذي رأى أن الخدعة نوع من الحرب، وفرح الشعب بهذه المصاهرة التي تعطيه الأمان وتكفيه القتال ماعدا تندو التي كانت تشتم رائحة الخديعة في الأمر، وحذرت عمها لكنه لم يستمع لنصيحتها ولما يئست من موقفه رجته أن يحتفظ بكل استعداداته العسكرية التي كان قد أعدها لمواجهة " تيمور لنك " قبل أن يرسل إليه في طلب المصاهرة المزعومة، لكن السلطان أحمد استخف بعقل تندو وسفه القواد والأمراء رأيها، وخرج السلطان في موكبه لملاقاة صهره المزعوم بالأفراح، فرسم الطرق لاستقبال الغازى المخادع دون حرب وفتح له أبواب بغداد ليدخلها دون حرب.

بمجرد دخوله بغداد انقض " تيمور لنك " على الجميع ليقبض رجاله عليهم ويقطعون رقابهم، لكن السلطان استطاع الفرار من تلك المذبحة ولجأ إلى حلب.

وصلت أنباء المذبحة إلى الظاهر برقوق سلطان مصر فسارع إلى إرسال أحد كبار أمرائه لاستقبال السلطان وحمله الهدايا والأعطيات له ودعاه لاستضافته في مصر وهو ومن معه، وحضر السلطان " أحمد " إلى مصر واستقبله السلطان " برقوق " وأنزله بقصور

الضيافة الفخمة بالقرب من مسجد ابن طولون، ونعموا بكرم الضيافة، ويبدو أن الجميع بما فيهم السلطان كانوا قد استسلموا لمصيرهم وسعدوا بالإقامة في مصر إلا " تندو " التي كانت تبدو في تعاسة دائمة من الجرح الذي لم يندمل باحتلال بلادها بخديعة " تيمور لنك " وعدم استجابة الجميع لرأيها واستخفافهم بها حين حذرتهم.

ذات يوم بينما تندو تجلس تراقب السماء وتتذكر أيامها في بغداد وملكها الضائع دخل عليها عمها السلطان أحمد يزف إليها بشرى طلب السلطان برقوق يدها للزواج وهو في غاية السعادة لهذه المصاهرة التي توفر له الأمن والسعادة وأخبرها بموافقته وسألها عن رأيها، ولم تكن " تندو " بحاجة إلى التفكير فلديها هدف تريد الوصول إليه ولا تقبل عنه بديلا وهو تحرير بغداد، طلبت على الفور أن يكون مهرها الذي تطلبه من السلطان برقوق هو مساعدتها على استرجاع أرضها من " تيمور لنك ".

وقبل السلطان ذلك ووعدها أن يلبى لها طلبها ويفي لها بمهرها، وتم الزواج على هذا المهر المؤجل الذي لم تمض عليه أيام حتى جاءت الأخبار بأن تيمور لنك يزحف نحو الجزيرة العربية، فذكرت " تندو " زوجها السلطان " برقوق " بوعده وطالبته أن هذا هو وقت وفائه لها بمهرها.

وبالفعل جهز السلطان جيوشه، وسار إلى قرية " البيرة " عند " حلب " وفى الليل هاجم معسكرات " تيمور لنك " الذي فقد توازنه بعد الخسائر الفادحة التي مُنى بها فأعطى الأوامر لجيشه بالانسحاب والعودة إلى بلاده، وتحررت بغداد وتوقف الزحف نحو الجزيرة، ثم عاد السلطان " برقوق " إلى القاهرة ليزف إلى زوجته " تندو " أنه وفى بوعده وسدد لها مهرها بتحرير بلادها من الغزاة.

لم يكن السلطان " برقوق " يتوقع أن يكون مهر زوجته التي أحبها هو مؤخر صداقها وهو الذي بذل كل جهده لإسعادها وراحة بالها الذي كان مشغولا دائما ببلادها لكن طلبت منه أن يسمح لها بالعودة إلى وطنها " بغداد ".

يضرب السلطان برقوق مثلا آخر للوفاء معبرا عن نظريته في معنى الحب أنه إسعاد المحبوب وليس أسره وامتلاكه فأكد لها أنه على حبه لها ووفائه وأنه في سبيل ذلك الحب مستعد لفعل أي شيء يمكن أن يسعدها حتى وإن كان بعدها عنه وفكها من رباط الزوجية، طلقها وجهز لها موكبا حملها إلى بغداد معززة مكرمة وعاد معها السلطان أحمد إلى سلطنته، لكنه لم يمكث طويلا حتى قتل بعد أن زوج " تندو " من ولي عهده الأمير " شاه " الذي مات بعد مدة وكان ضعيفا لا يقدر على إدارة دفة الحكم وتولى من بعده السلطان محمود لكنه كان ضعيفا أيضا فتخلصت منه بعد أشهر قليلة وتفردت هي بحكم العراق والجزيرة.

* * *

ميرى

كيــد النســاء

ميرى
ملكة اسكتلندا

توفى والدها الملك جيمس الخامس الإسكتلندى بعد ولادتها فأُرسلت إلى البلاط الفرنسى لتتلقى دروسها على يدى أشهر المعلمين وتلقت هناك أصول الإيمان الكاثوليكى، لم تكن قد تجاوزت الخامسة عشر لكنها كانت تبدو فتاة جميلة رقيقة أعجب بها أكبر أبناء ملك فرنسا وتزوجها في كاتدرائية رانس وكان هو يكبرها بعام واحد، ثم توفى الملك بعد ذلك فاعتليا العرش وكانت الخطط تقضى باغتصاب العرش الإنجليزى من نتاج تلك الفترة.

بعد مدة قصيرة توفى زوجها وعادت إلى إسكتلندا حيث تزوجت ابن عمها " هنرى ستوارت " لورد دارنلى لكنها رفضت أن تمنحه لقب ملك وكان هو شديد الغيرة من سكرتيرها السرى الإيطالى " تسيو " فقتله ليطمئن قلبه، وفى عام ١٥٦٦ ولدت " ميرى " ابنهما وهدأ الجو بين الزوجين لكن لم يكد يمر عام واحد وكان حينها " دارنلى " مريضا بالجدرى وملازما لفراشه إلا ونسف المنزل الذي كان يقيم فيه وأتى من يحذره في آخر لحظة، لكن الحذر لم يمنع قدر، فرغم أنه حاول الهرب إلا أنه وجد ميتا في حديقة مجاورة بتدبير من " ميرى " دون أن يعرف أحد طريقة تدبيرها للجريمة وشك الجميع في عشيق آخر بعد الخلاص من الأول على يد " دارنلى ". وكان ذلك العشيق هو " أرل أدف " أحد مستشاريها ولم تمض ثلاثة أشهر إلا وتزوجت ميرى من ذلك العشيق لتؤكد الشكوك، وثارت ثائرة اللوردات وحاصروا قصره لكن " ميرى " استطاعت الهرب بعد أن تنكرت في ملابس الفتيان ورغم ذلك تم اكتشافها فيما بعد وأسيئت معاملتها وهددت بالقتل وأكرهت على التنازل عن العرش وأودعت

السجن.

لم تيأس " ميرى " واستطاعت من داخل سجنها أن تجعل خادم في السادسة عشرة يساعدها على الهرب ونظمت جيشا لتسترد به عرشها لكنها منيت بهزيمة ساحقة وهربت إلى انجلترا وارتمت تحت رحمة الملكة إليزابيث، لكنها لم تكن تستطيع الحياة دون تآمر ومكائد، فقد اكتشفت الملكة إليزابيث أنها تتآمر على حياتها، فحوكمت، وأعدمت في ٨ من فبراير ١٥٨٧ ومشت إلى المشنقة رابطة الجأش لم يبد عليها هلع أو رعب.

* * *

شغب

كيـد النســاء

شغب
أم الخليفة جعفر المقتدر

بعد وفاة المكتفى عام ٢٩٥هـ - ٩٠٧م تولى أخوه جعفر المقتدر بالله الخلافة وكان آنذاك صبيا في الثالثة عشرة من عمره، فكانت أمه شغب التي كان اسمها من قبل " عزيب " وهي أم ولد تتصرف في الأحكام دون أن ترجع إليه، وكان الوزراء يرتعدون خوفا من ذكرها، وكان من نتيجة هذه السيطرة أن ضاع عهد الخلافة أثناء توليته في عزل الوزراء والقبض عليهم خاضعا في ذلك لإدارة أمه والخدم والقهرمانات والحجاب، وممن أمرت باعتقالهم الوزير حامد بن عباس الذي أمرت باعتقاله والتحفظ عليه في داره سنة ٩٢٣م، وعزلت كذلك على بن عيسى سنة ٣٠٠هـ، ويرجع سبب عزله إلى تخرَّص " أم موسى " قهرمانتها عليه لديها ولدى المقتدر حيث كانت قد أتته لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم فقال لها حاجبه: إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه، فاجلسى في الدار ساعة حتى يستيقظ، فغضبت من هذا وعادت واستيقظ على بن عيسى في الحال، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر فلم تقبل، وكان ذلك سببا في عزله وإيداعه في السجن دون تقدير لدوره الإصلاحى في الدولة.

رأت أم موسى مكانتها في بيت الخلافة وتأثيرها في صانع القرار وسيطرتها على الخليفة وأمه فزاد طموحها وطمعت في تغيير الخليفة نفسه والاستئثار بمكانة سيدتها بأن تولى زوج ابنة أخيها أبا العباس أحمد ابن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله، وقد اكتشفت " شغب " ذلك بعد أن راعها ازدياد أم موسى وقالت آنذاك: إنها قد دبرت على ولدها وصاهرت ابن المتوكل حتى تقعد به إلى الخلافة،

فقبض عليها وعلى أختها أم محمد وعلى أخيها أحمد وصودرت أموالهم، ولم تكتفى " شغب " بذلك، دفعت إليها بقهرمانة أخرى اشتهرت بشراستها وفساد قلبها فأذاقتها ألوان العذاب واستخرجت منها ما أخفت من الأموال والجواهر.

وكان نتيجة ذلك أن خلع المقتدر ثم أعيد ثم قتل، أما أمه " شغب " فقد رفضت أن تعطيه أموالا يستعين بها في حربه، وبعد مقتل ابنها قبض عليها وعلقت في شجرة بدار الخلافة وضربت ضربا شديدا حتى اعترفت بما لديها من أموال تخفيها ودلت عليها بعد ما نالت من التعذيب.

* * *

زوجة اليهودي

كيـد النســاء

زوجة اليهودي

روى أنه كان في بنى إسرائيل رجل صالح كانت له زوجة جميلة، وكان كلما خرج من البيت أغلقه عليها وأخذ المفتاح معه وذات يوم أثناء خروج زوجها وقبل أن يغلق الباب وقعت عينها على شاب فأعجبها وأعجبته، فتحادثا من وراء الباب بعد ذهاب زوجها واحتالا حتى صنعا مفتاحا آخر للباب، وكان الشاب ينتهز فرصة ذهاب زوجها ويأتى إليها بعد أن يفتحا الباب بالمفتاح المصطنع ويقضيا معا وقتا ممتعا، واستمرت علاقتهما الآثمة فترة شعر خلالها الزوج المخدوع أن زوجته تغير سلوكها تجاهه، فسألها عن ذلك لكنها أنكرت أن يكون هناك شيء من هذا التغيير، لكن الشك كان قد تمكن من الزوج فسألها أن تذهب معه إلى الجبل الذي كان بنى إسرائيل يتحاكمون عنده ليتأكد من براءتها، وكانوا يخشون إن كذب أحدهم أن يفضحه الله بتحرك هذا الجبل وافتضح أمره، وشعرت الزوجة بالخوف من انكشاف أمرها وأخذت تفكر في كيفية الخروج من ذلك المأزق.

تفتق ذهن الزوجة اللغوب إلى خطة رسمتها مع عشيقها وأخبرته بدوره فيها وكانت هذه ا لخطة (المكيدة) ترتكز على ألا تكون كاذبة حين تقسم وهي على الجبل.

أخبرت عشيقها أن يأخذ حمارا وينتظر على بوابة الطريق المؤدى إلى الجبل حتى إذا اقتربت هي وزوجها من المكان الموجود فيه عشيقها قالت لزوجها: إنها متعبة وطلبت منه أن يستأجر لها حمارا تذهب منه إلى الجبل، وفى اليوم الثانى استيقظ الزوج الذي لم يغفل له جفن وأيقظها، وكانت هي أكثر اطمئنانا منه نظرا لثقتها في نجاح مكيدتها وذهبا في طريقهما إلى الجبل، وبعد أن تركا القرية واتخذا

طريق الجبل ادعت الزوجة أنها متعبة ولا تستطيع المشي وطلبت منه أن يؤجر لها حمارا، ونظر الزوج المخدوع ليجد شابا يجلس ومعه حماره ينتظر من يستأجره كما أخبرته، وبالفعل نادى عليه زوجها فحضر إليهما وطلبت من الزوجة أن يساعدها على ركوب الحمار فساعدها حتى ركبت وسار إلى الجبل، ولما أرادت النزول طلبت منه أن يساعدها في النزول، ولكنها تصنعت السقوط وانكشاف عورتها، وصارت تسب الشاب (عشيقها) الذي أخذ يعتذر لها، فادعت عدم قدرتها على الصعود وطلبت من زوجها أن يساعدها على الصعود لكنه بسبب كبر سنه لم يكن يتمكن من ذلك فطلب من الشاب أن يقوم بذلك، وبالفعل حملها الشاب حتى صعدت الجبل وعلى قمته وقفت الزوجة اللعوب تقسم - غير كاذبة من وجهة نظرها - أن أحدا لم يمسسها أو ينظرها سوى زوجها وهذا الشاب.

وصدق الزوج المخدوع قسمها لولا أن الجبل اضطرب من شدة مكرها وكيدها.

* * *

زبيدة

كيـد النســاء

زبيدة
زوجة هارون الرشيد

ابنة عم هارون الرشيد وزوجته التي لم يُر مثل عرسها في الإسلام، فخلاف ما أنفق وما وُزع من مال في هذا العرس من بيت مال الخاصة، أنفق هارون الرشيد من ماله خمسين مليون درهم.

اسمها أمة العزيز، ولقبت بزبيدة لأن جدها أبو جعفر المنصور كان يرقصها وهي صغيرة ويقول لها يا زبيدة لبضاضتها ونضارتها، وكانت تتصف بالجمال والحشمة والفصاحة والعقل والتدبير وتتدخل في أمور الدولة، وتسيطر عليها من وراء حجاب، وكانت ذات مال كثير.

كانت زبيدة امرأة تدفعها غيرتها إلى فعل المستحيل ورغم حبها الشديد للرشيد، كانت لا تحمل منه وكان الرشيد يريد أن ينجب منها فأشار عليه بعض نصحائه أنه لن يتحقق له ذلك إلا إذا أثار غيرتها تأسيا بحمل سارة زوجة الخليل إبراهيم بعد أن تزوج من هاجر وبالفعل غارت زبيدة فحملت بمحمد الأمين.

بلغ يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد بمنزلة الأبوة التي كانت له على الرشيد مبلغا ومنزلة كبيرة، فقد كان يسير كل أمور الدولة وظن أنه بذلك يملك حرية تصريف كل الأمور حتى أمور القصر وتخيل أنه في موقع يمكنه من التحكم حتى في زبيدة وذلك في التضييق عليها، فكان يغلق أبواب الحريم في الليل ويحمل المفاتيح معه إلى منزله، ودخل بهذه في المنطقة المحظورة.

فالرشيد نفسه ما كان ليفعل ذلك، بل على العكس كان الرشيد إذا وقع بينه وبين زبيدة خلاف بادر هو بالاعتذار لها ومصالحتها فكيف

يفعل يحيى بن خالد ذلك بها.

كانت الوصاية التي يفرضها يحيى على القصر هي السيف التي قضى به يحيى بن خالد على نفسه وعلى البرامكة، ليس هذا فقط، بل إن يحيى تخيل من خلال موقعه واحترام الرشيد له أنه من الممكن أن يسير دفة الأمور بعد الرشيد وذلك بأخذ البيعة للمأمون وبالتالى استبعاد زبيدة وابنها الأمين ليتخلص من قوة شخصيتها وتأثيرها على أمور الدولة، فاستخدمت زبيدة أسلحتها وأوغرت قلب الرشيد عليه وعلى البرامكة ولما سعى جعفر بن يحيى مساندا لأبيه في أخذ البيعة للمأمون واشتد المرض بهارون الرشيد.

غضبت زبيدة غضبًا شديدا وعاتبت الرشيد في ذلك ودفع يحيى بن خالد والبرامكة ثم تحدى زبيدة بالقبض عليهم والقضاء على أكثرهم ومصادرة أموالهم وبالتالى نهاية أموالهم، ورغم ما لها من مآثر جيدة إلا أن قوة شخصيتها وشدة حبها لابنها جعلها تخسره وتخسر الخلافة معا.

* * *

الخيزران

كيـــد النســـاء

الخيزران

زوجة الخليفة المهدى

هي الخيزران بنت عطاء أعتقها الخليفة المهدى وتزوجها وهي جارية يمانية اشتراها بمائة ألف درهم، وهي أم ولده المهدى، ثم أنجبت بعد زواجه منها هارون الرشيد.

بعد أن صارت الخلافة للمهدى سيطرت عليه " الخيزران " بشخصيتها القوية وبالتالى سيطرت على مقاليد الحكم، فكانت صاحبة الأمر والنهى في كل شيء ومما يدل على قوة شخصيتها وقوفها ضد رغبة المهدى في الزواج من غيرها وبلغ نفوذها وقوتها أن أبناءها كانوا يخشونها ومن خالفها أو اعترض قتلته.

حين مات المهدى وآلت الخلافة إلى موسى الهادى أرادت أن يكون لها نفس المكانة التي كانت أيام أبيه لكنه كان يرفض أن يتدخل أحد في أمور الحكم خاصة أمه ويرفض أن يقف الناس ببابها وتُسيّر هي الأمور كما كان يحدث في أيام أبيه، فاتخذ موقفا متشددا معها وأرسل إليها: " لا تخرجى من خفر الكفاية إلا بذاذة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك ".

وحتى يغلق الباب نهائيا على من يقصد أمه من قواده الذين كانوا يأملون عندها التأثير عليه لقضاء حوائجهم (واسطة) جمعهم وقال لهم:

- أينا خير.. أنا أم أنتم؟
- قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين.

- قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه؟ فيقولون: أم فلان فعلت، وأم فلان صنعت، وأم فلان قالت.
- قالوا: ما أحدنا يحب ذلك.
- قال: فما بال الرجال يأتون أمى فيتحدثون بحديثها.

وهكذا عزل الهادى أمه سياسيا، ولم يتوقف الأمر على العزل السياسى والإقامة الجبرية لأمه بل أراد أن يتخلص من أخيه هارون الرشيد بالقتل أو أن يخلع نفسه حتى تصير الخلافة إلى جعفر بن الهادى، لكنه رأى أن قتله أفضل وصارح بذلك " هرثمة بن أعين " وأمره أن يذهب في ليلته فيأتيه برأس هارون الرشيد وطلب منه أن يحتاط في ذلك ورسم له خطة، أن يخرجه برسالة من الهادى يستدعيه إلى حضرته ثم يأخذه إلى مكان ويقتله أو يدبر هو أمرا آخر ويأتيه برأسه، فقال له هرثمة:

- يا أمير المؤمنين.. أخوك وابن أمك وأبيك وولى عهدك من بعدك فكيف تكون صورتنا عند الله تعالى أولا، ثم عند الناس، ولم يستمع الهادى إلى نصح هرثمة ولم يستيقظ ضميره وأجبر على قتل أخيه وقال " لهرثمة ":
- عليك أن تسمع وتطيع وإلا ضربت عنقك.

فصمت " هرثمة " وأمره كذلك بالفتك بالطالبين وعدم مبارحة مكانه حتى إذا انتصف الليل بدأ بقتل هارون.

يبدو أن " الخيزران " كانت قريبة منهما فسمعت ما دار بين ابنها الهادى وبين هرثمة وربما سمعه أحد جواريها ونقله إليها فاختارت هارون الرشيد مادام أحد ابنيها لابد أن يفارق الحياة ورأت أن تتغدى بالهادى قبل أن يتعشى بأخيه الذي يبرها ويوقرها.

ويقال أنها انتظرت حتى شرب وسكر وجعلت بعض الجوارى

يجلسن على وجهه حتى مات وذهبت فأحرجت يحيى البرمكى من محبسه الذي كان الهادى قد وضعه فيه، ويقال أن الهادى كان قد حاول قتل أمه بدس السم لها في الطعام لكنها كانت من الحرص بحيث لا تأمنه لذا جعلت خادمتها ألقت ببعضه إلى كاب فمات في الحال وكان في نفس الليلة قد أمر بقتل يحي بن خالد.

بعد موته والإفراج عن يحيى بن خالد ليتدبر أمر تولية هارون الرشيد الخلافة بدلا من ابنه جعفر بعد أن أخرجه من سجنه الذي كان قد أودعه فيه وجلست هي تبكى عند رأسه - أمام الموجودين - لكنها قالت حين أتى من يخبرها بموته من الخدم:

– إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة.

وقد أمرت الحيزران بعد أن تولى الرشيد بأن يقتل كل من كان تسرع إلى خلع هارون الرشيد، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى، لكن يحيى أشار عليها بأن يلقى بهم في نحور الأعداء، فإن دافعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو استراحت منهم وبهذا تخلصت منهم جميعا.

وقد علت مكانة الخيزران في عهد الرشيد إلى أقصى درجاتها حتى فاقت ما كانت عليه في عصر المأمون.

* * *

مسالينا

كيـد النســاء

مسالينا

الإمبراطورة العاهرة التي جمعت بين زوجين

تنبأ لها الساحر سيمون أن تكون إمبراطورة روما، وأن عم الملك الرجل الضعيف المصاب بالجدرى الذي كان ابن أخيه (كلوديوسى) يتعمد تحضيره سيكون سيد عرش روما (إمبراطورها بدلا من ابن أخيه القوى)، ورغم شيخوخته وضعفه ووجهه المجدور قبلت به زوجا ولم تكن في الواقع تحتمل ذلك، وحين حملها ليلة زفافها - حسب التقاليد - وكاد يسقط بها أفاقت وصديقه الشاب (فاليريوس) قائد الجيوش المنتصرة والذى تفرغ لدراسة العلوم والطبيعيات يحول دون سقوطها، لم يستمر الموقف سوى لحظات ساعدها فيها على الوقوف لكنها شعرت بأنفاسه تتخللها رغم أنه لم يُبد أى اهتمام بها، ورغم أنها طوال حفل الزفاف كانت تبدى لها رغبتها المتأججة من خلال نظراتها وابتساماتها التي كانت تفتح له الباب على مصراعيه لإطفاء رغباتها، لكنه كان يبتعد عنها بعينيه ولا يتجاوب مع نظراتها ودعواتها له، وهو ما زاد رغبتها أكثر له، وبدلا من أن تتهيأ لزوجها ليلة زفافها ذهبت إلى الصلاة لربها (برياب) تدعوه أن يساعدها كى تحظى بقلب فاليريوس ويمتعها بأحضانه وتطيل صلاتها تضرعا لبرياب وهي تبكى أن يحقق لها أملها.

حين ضمها وزوجها فراش الزوجية راح الزوج المريض في ثبات عميق فجأة بدلا من أن ينعم بجمالها الفتان وأنوثتها المتفجرة، ورغم خلاصها من الكابوس الذي كان يخنقها من فكرة اقترابه منها وسعادتها الغامرة بذلك إلا أنها شعرت بجرح عميق في كرامتها وأحست أنه أهانها بنومه وجرح أنوثتها جرحا غائرا.

خرجت " مسالينا " من غرفتها في هدوء وأسى لتتخلص من همومها في حديقة القصر وكأنها كانت على موعد مع الخيانة الزوجية في أولى سويعات حياتها الزوجية ولم يكن ذلك الرجل الذي خانت زوجها معه سوى المطرب الذي أحيا حفل الزفاف والذى خرج هو الآخر إلى الحديقة ليستقبل الهواء بصدر عار بجوار إحدى أشجار الحديقة مستلقيا على ظهره محدقا في السماء.

ثارت رغبات العروس ودفعتها غريزتها وأشواقها المحمومة لترتمى في حضن المطرب الشاب لتمطره بالأحضان والقبلات المحمومة في محاولة لإطفاء نار شهوتها المتقدمة.

عاشت مسالينا زوجة شكلية في القصر وتحققت نبوءة الساحر " سيمون "، وقتل الإمبراطور " كاليجولا " ابن أخ زوجها " كلوديوس " الذي نصبه القتلة إمبراطورا لتصبح هي الإمبراطورة وسيدة روما.

كان تنصيب " كلوديوس " إمبراطورا أمرا مضحكا فقد هرب بعد قتل الإمبراطور - الطاغية الدكتاتورية - واختبأ في كومة من القش وعثر عليه أحد المتآمرين على الإمبراطور صدفة وأخذ يستعطفه ألا يقتله بينما الفارس يجثو على ركبتيه أمامه يطلب منه العفو ومجلس الشيوخ يبحث عنه لتنصيبه إمبراطورا.

كان الإمبراطور المجدور يعشق " مسالينا " لكنه كان يعشق أكثر حياة اللهو وممارسة الجنس الرخيص والسكر في أماكن اللهو، وعرفت " مسالينا " حبه للنساء وشغفه بهن وعشقه للطاعم والسُكْر، ولأنها لم تكن تطيق أن يقترب منها، كانت تساعده لتحقيق نزواته بإلقاء المحظيات بين ذراعيه لتنصرف هي إلى ملذاتها فقد كانت بدهائها تعرف كيف تختار له النساء اللائى يحققن رغباته وهن

الجميلات شديدات الغباء؛ لأنه لم يكن يحب المرأة الذكية ولم يكن يريد من المرأة إلا جسدها.

كانت " مسالينا " حريصة ألا يفيق من السكر أو يبتعد عن النساء وأطايب الأطعمة لتتفرغ هي لتجرع كؤوس المتعة بكل أنواعها مع الشباب والصبية والشيوخ ومع الأمراء وعامة الشعب، فقد كان لها كل ليلة عشيق جديد يقضى معها الليل في متعة لا حد لها، رجل واحد لم تستطع " مسالينا " أن تجذبه إليها ولم يؤثر فيه حسنها وجسدها الطاغى، وكان يشعرها دائما بالدونية ويحطم كبرياءها هو " فاليريوس " القائد الفيلسوف فهى لم تنس رغم كل الرجال الذين ارتمت في أحضانهم ونالت بين أزرعهم ما شاءت من المتع تلك اللحظات التي سقطت بين ذراعيه ليلة زفافها.

كانت تشعر أنه رجل آخر غير كل هؤلاء الرجال لذا حاولت كثيرا أن توقعه في شباكها لكنها في كل مرة تُصاب بالفشل والإحباط، ويبدو أنها كانت تريد أن تثأر لأنوثتها وكبريائها.

في إحدى الليالى اختارت " مسالينا " رجلا تشاطره المتعة وكانت في أوج رغبتها للجنس والعربدة لكنه عجز أن يفى باحتياجاتها وإشباع رغباتها، وكان لهيب الرغبة يحرق مشاعرها والنار تتأجج في أوصالها فما كان منها إلا أن أمرت بإلقائه عاريا للكلاب لتنهش ذلك الجسد العاجز، وصرخت في داخلها رغبتها ولم تنطفئ وفكرت في قضاء ليلتها مع الشخص الذي رفضها وأذل كبرياءها تتمناه كل نساء روما لكن جاريتها أشارت عليها برجل وهو " فالير " الفيلسوف، لكن الإمبراطورة قالت لخادمتها في يأس أنه لا يقرب النساء ولا يستجيب لإغرائهن، وضحكت ضحكة خبيثة ثم قالت: ويبدو أنه لم يدع الورع إلا بعد أن خارت قواه، لكن الخادمة ضحكت ساخرة هي الأخرى وقالت في خبث أنه لا يستجيب إلا لامرأة واحدة، فانتفضت " مسالينا

" الإمبراطورة العاهرة وسألتها في حدة: إذن هو لم يحرم النساء على نفسه؟، فقالت الخادمة في خبث إذن أنت يا مولاتى مشغولة عن أخباره هو وعشيقته " بوبيا " امرأة " سيبون " التي تذهب إليه كل ليلة ولا تغادر القصر إلا في الصباح، وجن جنون الإمبراطورة لتفضيله بوبيا عليها ورفضه الدائم لها بحجة زهده في النساء، وقررت أن يكون لها مهما كان الثمن.

ذهبت الإمبراطورة إلى " فالير " مخترقة أشجار حدائقه فوجدته جالسا يبكى فقالت له في دلال، وهل يبكى الرجال؟ فأخبرها أن ذلك يحدث حين يشعر الرجل أن الوقت قد فات، وكانت هي تفكر فيما يزيد المتع والفجور بينما هو يتحدث عن العمر الذي ضاع في الرذيلة، فقال لها دون أن ينظر إليها لقد عشت حياتى في الضلال، ولم تنتبه لما يتحدث عنه وظنت أنه يواصل حديثه عن فترة بعده عنها.

وقالت: لا يزال الوقت موجودا ولازلت بنفس شوقى إليك، ففزع من قولها ورد قائلا:

لقد ارتكبت من المعاصى والذنوب ما لا أدرى إن كان الله سيغفرها أم لا، لقد كانت حياتى السابقة فسق وفجور وضلال، لذا حين أدركت الحقيقة احتقرت المال والمجد والسلطان والمتع الرخيصة، لكنها لم تكن تسمع سوى صوت رغباتها ومالت عليه بجسدها وقربت وجهها من وجهه مطلقة عليه سهام أنفاسها الحارة المملوءة بالرغبة وأخذت تغويه بالاتفاق معه للخلاص من الإمبراطور، لكنه لم يهتم بما تقوله فعادت لاستخدام أنوثتها مرة أخرى دون فائدة، فانتفضت تمطره بحممها من السبات والشتائم والتهديد والوعيد بفضح علاقته مع " بوبيا " في كل روما.

أراد أن يطردها بهدوء وأدب فأخذ بعض الحبوب وذهب ينثرها للطيور وهو يقول لها: لم يعد لدى ما أقوله، وعادت " مسالينا " إلى القصر وهي تفكر في كيفية الانتقام والقضاء على " فالير ".

كان الإمبراطور " كلوديوس " مستلق على ظهره يقرأ في أحد الكتب حيث دخلت عليه " مسالينا " تبكى فأخذها بين ذراعيه وربت على ظهرها وهو يسألها عن سبب بكائها وكانت هي قد رسمت خطتها لتخبره عن تفاصيل المؤامرة على عرشه التي يدبرها " فالير " ليعلن نفسه إمبراطورا بعد خلعه مستعينا بكتائب الرومان، ودارت رأس " كلوديوس " لأن " فالير " صديقه وهو الذي لعب دورا كبيرا في خلع " كاليجولا " ابن أخيه الإمبراطور السابق لينصبه إمبراطورا.

أخذت " مسالينا " تقنعه أنه عاد ليلعب نفس الدور معه وأنه طامع في العرش، ويبدو أن الإمبراطور قد اقتنع بجديتها، وحتى تحبك كذبتها أكثر اتفقت مع اثنين من أحط المقربين من الإمبراطور لينسجا له قصصا عن خيانة " فاليرا " ولم تكن الرغبة في الانتقام في قلب الإمبراطورة العاشقة " لفالير " وحده، بل " لبوبيا " أيضا، ولهذا جمعت التهم بالخيانة الاثنين معا.

انساق الإمبراطور الضعيف وراء زوجته الفاجرة وأرسل جنوده لاقتياد " فالير " الذي وقف يدافع عن نفسه ويعدد خدماته للإمبراطور لكن دون نتيجة.

وسأل الإمبراطور زوجته التي كانت تدير بالفعل شئون البلاد من بين أحضان الرجال عن القرار الذي يتخذه فنظرت إلى " فالير " في تشف وقالت - فيما ينظر هو إليها في كبرياء وتنظر هي إليَّ نظرة بابتسامة ساخرة:

إن " لفالير " خدمات كثيرة ولذا لابد أن نتركه يختار طريقة موته

بنفسه، واختار أن يقطع شرايين يده، ووضعه رجال الإمبراطور في محرقة وسط حدائقه ونثر رماده على أشجارها.

كانت قصص مجون الإمبراطورة تملأ روما التي تجثو فوق بركان من البارود والناس لم يعد لديها احتمال لأفعالها ولا يثق أحد في أن الأطفال الثلاثة الذين أنجبتهم " بريتا نيكوس - أوكتافيا - أنطونيتا " أولاد الإمبراطور أم نتاج لياليها الماجنة مع طالبى المتعة من كل الفئات - الفقراء والأغنياء، والصعاليك وحتى الصبية الذين كان لها مع أحدهم قصة انتهت بموته، وهو ابن المهرج ومدير شئونها الخاصة الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشر وقتلته بالسم حين بدأ يتحدث عن لياليها معه.

اندلعت المظاهرات المطالبة بسقوط الإمبراطورة العاهرة بقيادة القنصل " كايوس " وفكرت " مسالينا " بطريقتها ووجدت الحل في أن تجعل منه أحد عشاقها لتسكته وأرسلت في دعوته ورغم أنه شعر بذلك إلا أنه سار إليها مع الرسول الذي أرسلته إليه ونجحت في استقطاب القنصل الشاب الذي أُلِع بجمالها وهجر لأجلها زوجته الجميلة " جوينا سيلانا " ولم تكتف بذلك بل أرسلت من دس السم لعيشقين من محظياته فقتلهما.

بدأ الناس يتحدثون عن علاقة " كايوس " مع الإمبراطورة وأقصاه أصدقاؤه الذين حملوه المسئولية للخلاص من الإمبراطور عن مجلسهم.

كانت الإمبراطورة أيضا قد عشقته كما عشقها وكأنها لم تعرف رجالا قبله وبدأت تفكر في طريقة تجعل بها تلك العلاقة شرعية دون أن تنفصل عن الإمبراطور حتى تحتفظ بالإمبراطورية، وأعملت رأسها الذي لا يفكر إلا في الشر، وكان المدخل لحظتها إيمان

الإمبراطور المطلق بالسحر، فقررت أن تتفق مع إحدى الساحرات أن تخبر الإمبراطور بأن ملك الموت يحوم حول زوج " مسالينا " وأن زوجها سوف يموت بعد ثلاثة أيام من معرفة النبوءة، وهنا يأتى دورها بإقناعه بالهرب من المدينة بعد تضليل ملك الموت بزواجها الإسمى من زوج جديد هو الذي يقبض ملك الموت روحه وهذا له دلالته على الغباء المطلق للإمبراطور.

أخبرت " مسالينا "، " كايوس " بهذه الفكرة التي لم يتقبلها بسهولة لكنها استطاعت إقناعه ولم تترك له فرصة للرفض وأقنعته أن بإمكانه خلع الإمبراطور بعد ذلك وبدأ مسالينا التنفيذ، وفى احتفال كبير دخلت الساحرة وأخبرت الإمبراطور بالنبوءة وتلقته " مسالينا " وهو في ذروة الاضطراب والرعب لتقنعه بالحل الذي توصلت إليه لإنقاذ حياته، واقتنع الإمبراطور الغبى بالفكرة وفر بالفعل إلى أوسيتا وعقد الكاهن الزواج الأسمى بين " مسالينا " و " كايوس " في نفس اليوم فيما كانت هي تدبر لفعلتها كان هناك بعض الشرفاء يفكرون في إنقاذ روما من حكم تلك العاصرة ونصبوا المصارع " إيتاتوس " الذي فضلت " مسالينا " في إغوائه عليهم وقرروا أن يتخلصوا منها في تلك الليلة حتى لو كان الثمن حياتهم جميعا، لكن ذلك لم يكن رأى " إيتاتوس " فقد كان يرى أنها أقل من أن يضحى هؤلاء الرجال بحياتهم في مقابل حياتها التي لا تساوى شيئا.

كان قد حضر الخادم الخاص للإمبراطورة ليحكى لهم وقائع المؤامرة، وكان قد وضع خطته بإبلاغ الإمبراطور بخيانة الإمبراطورة وما دبرته من أمر إبعاده على أن يقوم خادمها الخاص بإبعاد جميع الخدم بإرسالهم إلى قصر آخر لتجهيزه بناء على أمر الإمبراطور، ويعود الإمبراطور للخلاص منها وعليهم أن يخبروا الشعب بالحقيقة.

كان أحد المجتمعين العشرة صديقًا عزيزًا للإمبراطور ويمكنه إقناعه بالحقيقة ليعود بقواته ليحطم " مساالينا " على أن يقوم " منيستر " بإبعاد الخدم والحراس بحيلة تبدو في مظهرها بأمر من الإمبراطورة وانقض الجميع وجاءت الليلة التي تقيمها الإمبراطورة لتعلن عزل الإمبراطور وتنصيب زوجها كايوس، بينما الشيوخ والأعيان في روما في حيرة من أمر هذا الزواج.

في منتصف الليل تسلق " فيوعيتوس " الذي يدعى علم الغيب شجرة عالية وهتف ليخبر الناس بأن طلائع عاصفة شديدة في الطريق تجاههم من المكان الذي ذهب إليه الإمبراطور الذي أعلنت الإمبراطورة عزله قبل ساعة واعتقد الجميع أنه حضر للانتقام، بينما بدأ الجميع يغافل الإمبراطورة ويتسلل من المكان، فيما كان " مساالينا " ترتعد من الخوف.

اقترب منه " تيوغينوس " ليخبرها أن الإمبراطور في الطريق إلى روما وفى نفسه رغبة للانتقام.

بعد فترة جاءهم عبد أسود ليخبرهم أن الإمبراطور في الطريق وأن حياة الإمبراطورة في خطر ولم يعد هناك مجال للشك.

حاولت " مساالينا " أن تنادى أحد الخدم فلم يرد عليها أحد من الخدم وهكذا بالنسبة للحراس وبدأت بالفعل تشعر بالخطر، فطلب من كايوس أن يذهب لجمع الأصدقاء والدفاع عن كرسى الإمبراطورية وأخبرته أنها تعرف كيف تستولى على قلب الإمبراطور المخدوع، بأنوثتها ونزلت إلى الاسطبلات تبحث عن عربة فلم تجد جيادا ولا عربات فخرجت مع الخادم الزنجى تبحث عن عربة تستأجرها لتذهب بها للقاء الإمبراطور لخداعه مرة أخرى قبل دخوله روما فلم تجد إلا عربة قمامة فأخذتها وانطلقت بها حتى رأت الموكب يقترب فقفزت

على جانب الطريق لتعدل نفسها للقاء الإمبراطور، لكن " ترسيس " صديق الإمبراطور كان يعرف كيف يمكن أن تفكر الإمبراطورة، ويعرف أيضا ضعف الإمبراطور العجوز أمام إغرائها، لذا حاول أن يشغله عن رؤيتها فأعطاه كشفا فيه أسماء عشاق الإمبراطورة ليقرأه، وبالفعل لم ينتبه الإمبراطور إليها ومضى الموكب بينما استقلت هي عربة القمامة وانطلقت مسرعة خلف الموكب في محاولة للحاق بالإمبراطور دون جدوى حتى دخل روما والتفت حول القصر جموع الشعب وقوات الحرس الإمبراطورى.

حاولت مسالينا الدخول دون فائدة فلم تجد إلا الصراخ والعويل حتى رأت خادمها الخاص " منيستر " فارتمت على صدره تطلب منه أن يفسح لها الطريق لكنه قذف بها بعيدا عنه وأخبرها أن الأمر انتهى وعليها أن تلقى نفس المصير الذي أنهت به حياة ولده " تيتوس ".

خطب كلوديوس في الشعب الذي كان يحبه رغم ضعفه أمام " مسالينا " التي ندد بها في خطابه وبالقنصل " سيليوس " وناشد الشعب الالتفاف حول العرش.

ولى الإمبراطور صديقه " ترسيس " قيادة الجيش وكلفه بالقبض على " سيليوس " وأصدقائه واعترف بعد ذلك بالمؤامرة وطلب سرعة إعدامه وتم ذلك بالفعل، بينما استطاعت " مسالينا " مقابلة أعيان روما وإقناعهم بطلب مقابلة " ترسيس " للدفاع عن نفسها فأخبره من أسلتهم أنها ستحاكم أمام محكمة خاصة ستحاكمها أمام الشعب، وعندما ذهب إليه ولداها " أوكتافيا " و " بريتا نيكوس " يطلبان منه عفوا عن أمهما لم يعدهما بأكثر من المحاولة لإنقاذ رأسها.

يضعف الإمبراطور العجوز - رغم كل شيء - ويطلب من صديقه وصفيه وقائد جيشه أن يرسل إلى زوجته لسماع دفاعها.

كان " ترسيس " يتوقع ذلك.. ليس ذلك فقط ولكن ربما العودة إلى القصر ولوضعها السابق وهذا يعنى هلاكه وبدلا من إبلاغها أمر رئيس الحرس بقطع رأسها على الفور، ولمسالينا قصة مع ذلك الخادم وهي سبب كراهيته لها حيث كان يشاهد لحظة الانتقام حيث ذهب إليها في القصر الذي تقيم فيه أمها وكانت نائمة على الحشائش فجذبها من ملابسها فتعرى صدرها ولطمها لطمة قوية كاد يزهق بها روحها ثم جذبها من ملابسها مرة أخرى فتعرى كل جسدها وكان " ترسيس " قد أتى ليتأكد من موتها وخرجت أمها من القصر وناولتها خنجرا مسموما كى تنتحر لكنها كانت أجبن من إنهاء حياتها بنفسها، وبنفس الخنجر الذي أعطته لها أمها لتتخلص به من حياتها أنهى رئيس الحرس حياتها به ليكتب بذلك نهاية تلك الإمبراطورة العاهرة.

* * *

صفية

كيـد النســاء

صفية

السفاحة البندقية

قاتلة السلاطين

كانت صفية فتاة بندقية خطفها القراصنة ثم باعوها لرجال السلطان مراد الثالث، ورغم أنها لم تكن فائقة الجمال إلا أنها استطاعت بذكائها الحاد وخفة دمها التي منحتها جاذبية شديدة أن تنتقل من حريم السلطان إلى المرأة التي تأسر قلب السلطان، وتجعله يتعلق بها ولا يطيق ابتعادها عنه لتصبح بعد أن أنجبت له ابنا أسماه (محمد فاتح القسطنطينية) الشخصية الثالثة في القصر السلطاني وتنال دون بقية الحريم لقب السلطانة، وكانت الشخصية الثالثة بعد السلطانة " نور بانو " اليهودية الأصل وأخته " أسما سطان "

كانت صفية تخطط للمستقبل بدقة شديدة وتعرف ما ستفعله بالتحديد، فمحطتها التالية ستكون بعد موت السلطان الذي ما لبث أن مات بعد عدة سنوات وكان عليها أن تنفذ خطتها، فبينما انشغل الجميع بالسلطان الذي يحتضر وبتجهيز الجثمان للدفن ومراسم الجنازة وتسيير أمور البلاد من بعده كانت تأمر بعض مماليكها المقربين للخلاص من إخوته الثلاثة عشر غير الأشقاء ليسبقوا أباهم إلى الضريح ليلا ليس لحضور مراسم الدفن، وتشييع الجثمان، ولكن قتلى مخنوقين كعادة أهل البندقية في الخلاص من أعدائهم، وبعد أن اطمأنت إلى سير الأمور كما تريد ذهبت إلى ابنها " محمد خان " مسرعة في هدوء شديد لتطلب منه سرعة الجلوس على كرسى العرش باعتباره السلطان الجديد وأن يتصرف بهدوء؛ لأنه ليس هناك داع للقلق بعد أن أزاحت من طريقه إخوته الذين كانوا

سيزاحمونه كرسى العرش وأن عليه أن يتقبل واجب العزاء في أبيه السلطان مراد، وحين سأل عن أخوته أخبرته أنهم سبقوا إلى الضريح لاستقبال والدهم السلطان السابق.

حين علم ابنها بحقيقة الأمر وأنها أمرت بخنق أخوته حتى الموت وهم نائمين في غرفهم، أخبرته أنها فعلت ذلك من أجله لتزيحهم من طريقه ليخلو له كرسى السلطنة ولا ينازعه أحد ملك مصر، ولما اعترض على فعلتها تلك أخبرته أن أباه قد فعل ذلك قبله هو وزوجته اليهودية حين قتلا أخوته الخمسة " محمد وسليمان، ومصطفى، وجهان خان، وعبد الله " حتى يخلو له كرسى السلطنة أيضا بعد وفاة أبيه السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٤م.

كانت صفية هادئة وتتحدث بثبات مع ابنها وكان هو يعلم أن أمه تنتمى إلى عائلة " بافو " أحد دوقات البندقية الذين اشتهروا بخنق أعدائهم حتى الموت دون الاكتفاء بهم سجناء في زنازين القصر وإلقاء جثامينهم من فوق جسر التنهدات ليتخلصوا منهم نهائيا دون أن يعلم أحد شيئا عنهم ويبدون أنهم قد ماتوا غرقا، وأصبح ما فعلته السلطانة صفية سنة متبعة في قصور السلاطين العثمانيين بعد ذلك، واستطاعت بقوة شخصيتها ودهائها إسكات الأصوات التي تساءلت عمن يعتلى العرش بعد السلطان مراد، وقبل أن يوارى الثرى جثمان السلطان كان قد انتشر في البلاد خبر لم يستطع معظم الناس تصديقه.. أن محمد خان ابن السلطان مراد هو السلطان الجديد باسم " محمد الثالث " أما أخوته فقد اختفوا بعد أن حاولوا قتل السلطان.

أدرك السلطان الجديد ما كان يقوله جده ولم يستطع فهمه آنذاك: " إذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء "، لقد كان الجد حكيما وقد وقع في ذلك الخطأ وربما أراد أن يلقن الدرس لحفيده مبكرة لكنه وقع فيه أيضا وسلم نفسه لحريمه ومحظياته وجواريه

ومن قبلهم أمه حتى أنه كان ألعوبة في أيديهم، كانت صفية لا تزال تذكر بلدها البندقية وتعمل كل ما تستطيع في صالحها واستغلت تعلق ابنها السلطان واستسلامه لها لخدمة وطنها وللخلاص والانتقام من أعدائها حتى أصبحت الكلمة الأولى في السلطنة لها.

عندما ثار جنود الإنكشارية مطالبين بدفع رواتبهم وأن يلغى قرار الصدر الأعظم بتخفيض قيمة الربع من رواتبهم أوفدت رسولا للقاء زعمائهم للتفاوض معهم وإبلاغهم بأن السلطان غير راض عن ما فعله وزيره وأنه يعدهم بصرف رواتبهم كاملة وإلغاء القرار وتأكيدا لذلك فإنه يدفع إليهم برأس ذلك الوزير الذي كانت هي تريد الخلاص منه، وأمرت جنود الحراسة اقتياد الوزير إلى الإنكشارية الذين ذبحوه وهم يهللون " نصر الله السلطان ".

استمرت السلطانة صفية مسيطرة على مقاليد السلطنة وعلى ابنها السلطان محمد الذي عاش ألعوبة لها حتى وفاته وأرادت أن تلعب نفس الدور مع حفيدها السلطان أحمد الذي تولى العرش بعد أبيه لكنه كان فطنا ورفض الانصياع لأهواء جدته ووضعها في قصر جميل على ضفاف البوسفور لتقضى فيه بقية حياتها.

* * *

كاترين

كيـد النسـاء

كاترين

زوجة القيصر التي قتلته

ثلاث محاولات لاغتيال القيصر تفشل ولكن المرة الأخيرة كادت تنتهي فيها حياة الإمبراطورة كاترين التي كانت تدبر هذه المحاولات فقد انكشفت المحاولة الأخيرة بالصدفة وكان وراء انكشافها أحد الجنود الأغبياء الذي سأل ضابطا لم يكن مشتركا في المؤامرة من موعد مهاجمة القيصر وانطلق الضابط ليبلغ الإمبراطور بالأمر ولم يكن أمام الإمبراطورة وسيلة سوى الهرب إلى بطرسبورج فقد كانت الخطة تقتضي الخلاص من الإمبراطور بطرس الثالث قيصر روسيا وزوج الإمبراطورة في قصر بترهوف وكانت الخطة مهاجمة الإمبراطور على الطريق بين قصر أورينابوم وقصر بترهوف.

كان قائد الانقلاب قد أعد خطة للهرب إذا انكشفت المؤامرة فأسرع إلى الإمبراطورة ليخبرها بما يحدث ويعربها إلى بطرسبرج حيث كانت العربة في انتظارها وأثناء سيرهم مسرعين تكسرت العربة وكادت الإمبراطورة تلقى حتفها وحتى مع نجاتها من السقوط فإن عدم وصولها إلى بطرسبورج بسرعة سيلحق بها رجال الإمبراطور ويطاح برأسها ورأس (الجنرال الكس أوربوف) قائد الانقلاب ورجاله.

لمح ألكس فلاحا يقود عربة بها أوساخا ينقلها إلى أرضه فحمل الإمبراطورة بسرعة وألقى بها على العربة وقذف بالفلاح في الأرض وانطلق بالعربة، بينما الإمبراطورة تجلس فوق الأوساخ (روث الماشية) تفكر في حيلة لإنقاذ رقبتها أو للخلاص من القيصر ووصلت العربة إلى القصر ورأى الجنود الإمبراطورة فوق العربة وقد علقت الأوساخ بجسمها وملابسها فأصابتهم الدهشة فهبطت بينهم

وهي على هذه الحال وأذرفت الدموع غزيرة والكلمات تخرج من بين شفتيها بصعوبة قائلة تخاطب الجنود: إن القيصر حاول اغتيالها لكنها هربت منه لتلجأ إليهم لحمايتها من ظلم الملك وطغيانه وأخذت تستعطفهم وتمجدهم حتى انطلقت الهتافات من بين شفاههم مدوية بتحية الإمبراطورة وسقوط الإمبراطور، وهو ما شجعها لأن تتقدم إلى قائد الحرس (فيلبوس) لتسأله في حزم عما ينوى أن يفعله.

لم يجد قائد الحرس ردا سوى أنه طوع أوامر جلالتها لتنتهى بالحيلة المؤامرة التي عجزت الأسلحة والجنود أن تفعله ثلاث مرات، وأصبح الجيش وترسانات الأسلحة الرسوبية الضخمة والعاصمة بيد الإمبراطورة.

كان القيصر لا يزال في بترهوف وعلم بما فعلته الإمبراطورة واستيلائها على العرش فأخذ يضرب رأسه بالحائط.. فهو لم يعد إمبراطورا ونصحه المقربون بأن يرسل إلى كاترين معترفا بخطئه ويطلب منها مشاركتها في الحكم، وجاءه الرد سريعا مع ألكس أورلوف مندوب الإمبراطورة بكتابة إقرار صريح بعدم صلاحيته للحكم وتنازله طواعية ومختارا عن العرش.

لم يكن أمام الإمبراطور حلٌّ آخر وهو يرى أليكس في الغرفة وفي يده سيفه سوى التنازل عن العرش، أعطى أليكس الإقرار الذي لم يكتف به لكنه أخذ القيصر أيضا إلى قصر روبكا ليغلق عليه الأبواب (سجينا).

ترى هل اكتفى أليكس بالإقرار وسجن القيصر؟

كانت لديه أوامر من الإمبراطورة بالخلاص من الإمبراطور فذهب إليه أليكس في محبسه ليشرب معه نخبا ويحدثه عن ندمه وزوجته على ما حدث وأخذ القيصر بعب من الفودكا التي كان لا يعلم أن بها

سم الزرنيخ، وسقط القيصر على الأرض يتلوى من الألم وأخذ أليكس يضغط على رقبته ووضع قطعة قماش في فمه.

في العاشر من يوليو ١٧٦٣م أعلنت الإمبراطورة كاترين الثانية قيصر روسيا رحيل الإمبراطور وجاء في ذلك الإعلان: " شاءت إرادة الله القدير أن يتوفى القيصر بطرس الثالث في نوبة مرض شديدة كان يلزمه منذ زمن طويل ودعت له بالرحمة وللشعب الروسى بالصبر والسلوان في مصابه العظيم بموت القيصر ".

ذهبت قيصر روسيا الجديد كاترين إلى غرفتها وعلامات الحزن والأسى مرتسمة على وجهها وجلست تسترجع سنوات عمرها الماضية حين زوجتها أمها إمبراطورة النمسا وأختها الإمبراطورة إليزابيث بابنها الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين " بطرس " وظلا منذ ذلك الحين غريبين فلم يعرفا معنى الحياة الزوجية.

كان حديثا قد دار بين كاترين والقيصر العجوز بعد تسع سنوات من الزواج حيث قالت لها حينها: " وماذا بعد يا كاترين؟ إنك لم ترزقى إلى الآن بولى العهد؟ من المسئول عن عدم الإنجاب؟

وردت كاترين أنها على أى حال ليست المسئولة عن ذلك، وكانت القيصر تعرف ذلك وأخبرتها أنها تعرف أن ابن أختها عاجز وأنه السبب في عدم الإنجاب، لكن أين يذهب كل ذلك الملك إذا لم يكن هناك وريث للعرش ".

إن المستقبل أصبح مظلما فإن لم يكن بطرس غير قادر على الإنجاب فإن بإمكانك البحث عن آخر يغطى ذلك العجز الذي سيتسبب في ضياع عرش روسيا.

أصبح مع الأميرة تصريحا بالبغاء الذي لا تخلو منه تلك القصور فأخذت تبحث عمن تعاشره من رجال القصر وقربت الكثيرين منها

وخاضت التجربة مع معظمهم حتى اختارت الجنرال الشاب ألس أورنوف لكنه لم يكن وحده الذي ترتمي بين ذراعيه حتى أنجبت وريث العرش، ولم تستيقظ من شريط ذكرياتها إلا في رحلتها بعربة السباخ وروث الماشية.

عادت كاترين لتواصل رؤية شريط الذكريات فعرضت في مخيلتها تلك الليلة التي كان يحتفل فيها القيصر بطرس الثالث زوجها بعد اعتلائه العرش بقصره في بيترهوف وكان المدعوين من السفراء والسلك الدبلوماسى وكبار رجال الدولة.

لكن القيصر تركهم جميعا وجلس يحتسى الخمر مع بعض الصعاليك وخدم القصر، بينما الإمبراطورة تقف في شرف استقبال الضيوف الذين لاحظوا غياب القيصر الذي يشاهدونه وهو يجلس مع هؤلاء الصعاليك دون أن يقوم لتحية ضيوفه، فذهبت إليه تطلب منه الحضور لاستقبالهم والترحيب بهم، لكن الخمر كانت قد لعبت برأسه فحمل الكرسى من أمامه وقذف به في اتجاه الإمبراطورة وأمطرها بسيل من الشتائم والسباب ليخيم الصمت على القاعة، بينما هو مستمر في سبابه للإمبراطورة التي اتهمها بأنها أعطت لنفسها الحق في توجيه القيصر وهي الألمانية الحمقاء، وتوعدها بأن يجعلها تقدس زوجها حين تستعطفه من خلف القضبان تطلب منه الغفران.

لكنها ردت عليه في تحد أنه لا يستطيع ذلك وهو ما جعله يجرد سيفه من غمده وهو ينطلق إليها، ورغم ذلك وقفت ثابتة ولم تتحرك بل قالت في سخرية:

إذا كنت تريد المبارزة فأنا بحاجة إلى سيف.

استقر الحكم للإمبراطورة كاترين العظمى كما ثبت وسعت هي منذ بداية ولايتها للإمبراطورية أن تحيط نفسها بمهابة وكانت تؤمن "

بـأن علـى الملـوك والملكـات أن يسـيروا فـي أحكـامهم دون الاهتمـام بصيحات الشعوب كمـا لا يعبـأ القمـر بنبـاح الكـلاب "، وحتـى تثبـت جدارتها باللقب أحدثت إصلاحات عديدة بالإمبراطورية حيث أقامت المدارس والمستشفيات وترسانات ومصانع وفتحت المجـال للتجـار بعـد أن اكتسـحت الأراضـي التركيـة العثمانيـة وبعـض دول أوروبـا كبولندا وغيرها، أما على مستوى حياتها الشخصية فقد كانت متقلبـة المزاج تغدق الأموال على من يتقرب منها من الجنرالات الشباب قبـل أن تـتخلص مـنهم ولا تهـتم بصـراخ العامـة مـن الضـرائب التـي أثقلـت كـاهلهم لكنهـا حين تجلـس إلـى نفسـها تعتـرف بـذنبها ودورهـا السيء طوال حياتها وأنها تشعر أن الشعب لا يحبها.

* * *

تيودورا

كيــد النســاء

تيودورا

إمبراطورة الانتقام

لاشك أن النشأة تؤثر في الإنسان وفى علاقاته بكل من حوله مهما تغيرت معطيات النشأة، فالمريض الذي لا يُحصِّنه دين يحقد على الأصحاء، وكذا الفقير ويظل في ذهنه الطريقة التي كان يتعامل بها معه الناس منذ الصغر وهذا ما حدث بالفعل مع (تيودورا) أى " هبة الرحمن " التي نشأت في أسرة تحت خط الفقر بمسافة بعيدة - أب وأم وشقيقتين - كان حلم أبيها أن يوفر لقمة العيش لأسرته الصغيرة وهذا ما دفعه للرحيل إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

كأى طفلة حلمت الطفلة الصغيرة فائقة الجمال بأشياء كثيرة ظنت أنها ستتحقق بوجودها في المدينة الكبيرة لكن لم تتحقق لأن والدها لم يجد عملا، وظل عاطلا حتى تبسم له القدر ووجد عملا لم يدرك وقتها أن هذا العمل الذي فرح به ليوفر نفقات أسرته هو العربة التي سيركبها إلى العالم الآخر، فلم يكن ذلك العمل سوى مروض للدببة ولم يستمر الأمر طويلا حيث هاجمه أحد الدببة ولم يتركه إلا جثة هامدة.

عادت الأسرة لتعانى من جديد لتوفير القوت الضرورى لبقائهم على قيد الحياة في المدينة الصاخبة وهم يرون الأغنياء في الحانات والبيوت يرفلون في النعيم ويعيشون حياة البذخ دون أن يمد إليهم أحدا يده بكسرة خبز، ولم تحتمل الأم كثيرا فقد داهمتها الأمراض ولحقت بزوجها إثر وعكة صحية دون أن تجد ثمن الدواء وتركت بناتها الثلاث بلا عائل و لا مأوى، ولم تجد الفتاة الصغيرة حلا لتوفير الطعام لأختيها سوى العمل بالحانات كخادمة أو مهرجة في السيرك، حتى بدأت تحترف مهنا أخرى كالرقص والتمثيل في

المسارح الشعبية الممتدة على شواطئ البسفور بين الرعاع والصعاليك المخمورين الذين ينهشون جسدها النحيل بأعينهم ويدفعهم إلى ذلك حسنها الفائق.

لم تكن (تيودورا) راضية بحياتها تلك وهو ما جعلها تحقد على المجتمع الذي لا يرحم الفقراء، وذات ليلة قبض عليها رجال الشرطة وأصدر محافظ المدينة المتسلط قرارا بوسمها في كتفها بسيخ من الحديد يحمى في النار ليتم التعرف عليها بواسطته باعتبارها فتاة ليل وهذا ما ضاعف حقدها على المجتمع بالكامل.

بعد طول معاناة يبتسم القدر لتيودورا حين لجأت الصديقة لها كانت تعمل معها في أحد المسارح الشعبية وكانت على علاقة سابقة بالأمير " حستنيان " ولى العهد أيام شبابه حين كان يتردد على تلك المسارح وأعطتها صديقتها خطاب توصية للأمير ليوصى لها أحد أصحاب المسارح الكبيرة للعمل لديه، لكن عليها أن تحاول الوصول إلى الأمير.

لم يكن ذلك أمرا صعبا على فتاة في جمال وذكاء تيودورا، وبالفعل استطاعت أن تحتال على الحراس حتى وصلت إلى الأمير المهووس بالنساء الجميلات منذ صغر سنه، وفوجئ الأمير - الذي اختاره عمه ليكون وليا للعهد - بفتاة فائقة الجمال أمامه وكانت قد عرفت من صديقتها هوسه بالفتيات الجميلات فخطر ببالها أن تستخدم أسلحتها كأنثى حين رأته يفترسها بعينيه، وحين سألها عما تريد ردت عليه بأنوثة طاغية ودلال أنها تريد أن يتوسط لها في العمل بأحد المسارح الكبيرة - وألقت الطعم بعد ذلك - وأنها مضطرة لذلك وأنها لا تحب هذا العمل، وبلع الأمير الطعم وهي تركز بعينيها الجميلتين بدلال في عيني الأمير الذي قال لها: لن تعملي في هذه الأماكن بعد ذلك بل ستبيقين معي.

لم تكن (تيودورا) تحلم بذلك لكنها وجدت الفرصة أمامها، فأحسنت استغلالها، ولم تبق في قصر الأمير كخادمة أو محظية رغم أنها ما كانت تحلم بذلك، بل إن القدر أعطاها أكثر مما يمكن أن تحلم فقد أصبحت زوجة للأمير - ولى العهد - الذي تمكن من الحصول على موافقة من الإمبراطور بإلغاء القانون الذي يحرم زواج الخاصة من عامة الشعب وخاصة الراقصات والمغنيات، ولعل الحالة التي بلغها الإمبراطور من الشيخوخة والوهن ساعدا الأمير في ذلك، واشتد المرض بالإمبراطور ولم يعد قادرا على تسيير الأمور فترك للأمير إدارة شئون البلاد واقتصرت مهمة الإمبراطور على توقيع الوثائق وختمها.

كانت فرصة لتيودورا لاستخدام ذكائها في أن يتسلم زوجها العرش بسلام وعملت بدهائها على إبعاد المتربصين بالأمير، فكانت تطلب من الأمير إبعادهم وتغير بعض رجال الحرس وتعيين من تثق بهم ونشرت الجواسيس في القصر لمتابعة كل شيء يدور في أروقته، وساعدت زوجها في القيام بكل شؤون الإمبراطورية الداخلية والخارجية لتسد الطريق على النبلاء والأثرياء الذين كانوا يحلمون بالقفز إلى العرش والخلاص من زوجها والذين كانت تكرههم منذ قدومها مع أبيها وأمها وشقيقتيها إلى القسطنطينية وسخريتهم منها وسخطهم عليها حين كانت ترقص في الملاهى والمسارح.

لم يكن كل همها الحفاظ على العرش لزوجها، بل إن هناك أيضا من كن أو كانوا يتمنون إزاحتها من جانبه لعلمهم بذكائها وقدرتها على إدارة الأمور، ولم تنس ذلك المحافظ الذي وسمها كفتاة ليل فقد أوحت لزوجها أن يقيله من منصبه، وأن يقرب قائد الجيش (بليزاريوس) إليه وكان وقتها منتصرا على الفرس واستدعاه الأمير ومنحه باسم الإمبراطور وسام الدولة ومنحه أيضا مساحة شاسعة من

الأرض تقديرا له وتقديرا من الوطن لما قام به، وبهذا أمنت غدر (يوحنا الكبادوكى) المحافظ السابق حين يموت الإمبراطور.

بعد فترة مات الإمبراطور وخرجت القسطنطينية بكاملها لتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير وتولى رئيس مجلس الشيوخ كتابة الوثائق القانونية لإعلان الأمير جستنيان إمبراطورا على البلاد، ولم تكن (تيودورا) تكتفى بأن تكون الإمبراطورة زوجة الإمبراطور بل كانت تريد أن تكون شريكة في الحكم واستطاعت أن تقنع الإمبراطور، الجديد (زوجها) بذلك واقتنع هو لدورها في الحفاظ على العرش حتى تسلمه، وبالفعل طلب من رئيس مجلس الشيوخ ذلك " وتردد الرجل قليلا وهم (حنا كبادوكى) المحافظ السابق بالحديث لكن (بليزاريوس) قائد الجيش دوى صوته مخاطبا رئيس مجلس الشيوخ قائلا:

ماذا تنتظر يا سيدى لتنفيذ رغبة الإمبراطورة!!

ونفذ الرجل الأمر وكتب المراسيم القانونية وخرج قائد الجيش إلى شرفة القصر وصاح في الجماهير المحتشدة بصوت جهورى... مات الإمبراطور، وعاش الإمبراطور جستنيان وشريكته الإمبراطورة تيودورا.

بعد الجلوس على العرش تفرغ جستنيان ورئيس مجلس شيوخه إلى دراسة اللوائح والقوانين واستخلاص بعضها لضمها في موسوعة بعنوان (موسوعة قوانين جستنيان) وتفرغت هي لإدارة شؤون البلاد وأبدت في ذلك عبقرية نادرة، وأمسكت البلاد بيد من حديد ولم تنس للحظة واحدة الطريقة التي مات بها أبوها ليوفر لهم لقمة العيش وموت أمها متأثرة بمرضها دون أن تجد ثمن الدواء، وتشردها هي وأختيها بعد ذلك ولفظ المجتمع لهم ثم عملها في الملاهى والمسارح

الشعبية ومعاناتها من الرعاع والصعاليك وانطلقت تنتقم من الجميع من نبلاء وأشراف وعامة الشعب، تصادر أموال النبلاء وتجبى الضرائب من العامة بينما الإمبراطور مشغولا بالقوانين واللوائح.

رغم كراهية الشعب لها وسخطهم عليها بسبب ما فرضته من ضرائب إلا أنها كانت تكسب الجولات ولا تأبه بما تخسره في مشوارها.

كان (حنا الكبادوكى) المحافظ السابق يدبر بها المكائد ردا على عزلها له، وذات يوم أطلقت شائعة بأن تيودورا أصدرت أمرا بتخفيض ما يصرف للشعب من القمح إلى الثلث، وكان الشعب قد ضاق بما يفرض عليه من ضرائب ولم يعد مستعدا لأن يقطع عنه القمح أيضا ليجوع وتشبه فئة قليلة، وكان أول الإنذارات حين نظر الحراس في الصباح إلى تمثالين للأمير فوجدودهما ملخطان بالطين ثم تعالت الهتافات " اللعنة على الإمبراطور والحرق للعاهرة ".

كانت تلك هي المرة الأولى التي تثور فيها القسطنطينية، وأصدرت تيودورا أوامرها لقائد الجيش يلبزاريوس أن يقضى على الثورة، لكن الشعب الجائع انطلق من الشوارع ثائرا يحرقون ويسرقون القصور والمحال التجارية وتحولت المبانى الحكومية والقصور إلى شعلة مستعرة.

لم يستطع قائد الجيش فعل شيء بينما انطلقت الجموع إلى القصر الإمبراطورى بقيادة كبادوكى يقتحمون الأسوار وانتبهت الأميرة النائمة إثر إصابتها بالسرطان تسأل عن ذلك الهدير المنبعث من كل مكان حول القصر فأخبرتها وصيفتها العجوز: إنه الشعب الخائن جاء يطلب الطعام، وبدلا من الهرب طلبت من وصيفتها وأحد رجال القصر أن يساعداها للذهاب إلى الشرفة حيث وقفت مستندة إليهما

لتخاطب الجماهير الغاضبة في هدوء الذين أصابتهم الدهشة لجرأتها، وسألتهم عن طلباتهم فأخبروها أنهم يريدون الخبز، فردت عليهم في هدوء لكم ما تريدون، وليس الخبز فقط بل سيقام لكم حفل صاخب في الملعب الكبير، وتحولت الهتافات التي كانت تنادى بسقوط العاهرة إلى هتافات بحياة الإمبراطورة الكريمة.

وفى اليوم الثانى كان الشعب يرقص في حفل صاخب حتى منتصف الليل وعاد الإمبراطور والإمبراطورة إلى القصر واستمر الناس بما فيهم قادة المظاهرات حتى كانت الفقرة الأخيرة من الحفل حيث تقدم رئيس الحرس وأحاط الجنود بالمحتفلين في أقواس وانهالت السهام القاتلة على الشعب الأعزل المذهول من المفاجأة بينما الإمبراطورة تجلس على سريرها تبتسم رغم مرضها لانتقامها من الشعب الذي تجرأ وهتف ضدها، لكن دهاؤها ومكرها لم يمكناها من الانتصار على السرطان الذي ظلت تعانى منه أشد العذاب حتى ماتت.

* * *

الراهبة

كيــد النســاء

الراهبة

شارلوت

شارلوت كورداى فتاة فرنسية تنتمى إلى أسرة عريقة نشأت منذ صباها في أحد الأديرة كراهبة متدربة تعلمت القراءة والكتابة وقرأت الكتب المقدسة.

خرجت من الدير فتاة يانعة باهرة الجمال لتقيم مع عمتها العجوز التي كانت تحب القراءة وكان في بيتها مكتبة صغيرة بها بعض كتب التاريخ والبطولة فامتلأت رأسها بقصص تراجم الأبطال بما فيها من أمجاد وتضحيات قدموها لبلادهم فتمنت أن تقدم لبلادها مثلما قدم هؤلاء الأبطال لبلادهم.

كانت في العشرين من عمرها حين قامت الثورة الفرنسية والتقت في دار عمتها ببعض شباب الثورة وكان من بينهم شاب ألماني اسمه (آدم توكس) عرفت من خلالهم أسباب الثورة وتابعت أخبارها وانشغلت بالعامة من الشعب الذين تعاطف معهم (آدم توكس) والذين قاموا على الحكومة الملكية لإسقاطها وتأسيس الجمهورية بدلا منها.

كانت شارلوت ترى سوء معاملة النبلاء وكبار موظفى البلاط الملكى للشعب الذين كانوا يثقلون كاهل الشعب بالضرائب الباهظة التي يجمعونها منهم عنوة حتى عم الفقر البلاد وضاقت الناس أسباب العيش - عدا النبلاء والأشراف طبعا -.

حين قامت الثورة وحققت أول مراحل النجاح بإسقاط الباستيل كانت سعادتها لا توصف، لكن فرحتها لم تكتمل حيث كان يخبرها آدم بالأحداث التي كانت تثير مشاعرها وتحزنها - أن الثورة تأكل أبناءها ويُقضى على من قاموا بها بعد أن تولى قيادتها مجموعة ممن

يمكن القول أنهم سرقوا الثورة وانطلقوا في البلاد بلا رادع يقتلون ويضطهدون المخالفين لهم وكان قد أخبرها آدم أن (روبسيير مارا) قد تزعم فئة من الإرهابيين.

كان حزن شارلوت شديدا أن يتولى ذلك الإرهابى والفئة الطاغية من الإرهابيين معه أمر البلاد وأن المعضلة أصبحت جزءا من حياتهم حيث لا تهدأ لحظة عن قطع رقاب المعارضين لأى سبب أو بلا سبب خاصة من (الجيرونديين) الذين يقيم معظمهم في (نورماندى) رغم اعتدال آرائهم فساءها ذلك وقررت أن يكون لها دورا في الثورة غير متابعة الأخبار من آدم وشباب الثورة وحددت هذا الدور بالخلاص من رأس الأفعى وتخليص البلاد من الفساد بقتل الطاغية زعيم الإرهابيين، لكن كيف فهى لا تملك جيشا ولا سلاحا ولا رجالا تقودهم لإعادة الثورة إلى الشعب خاصة وأن السفاح كان يطيح برأس أى معارض له.. إذن الحيلة والمكيدة يمكن أن تغنى عن كل ذلك.

سافرت إلى باريس وبدأت تفكر في كيفية الوصول إلى السفاح (مارا) وأثناء ذلك عرفت أنه لا يظهر للناس ولا يقابل أحدا وحاولت معرفة السبب، فعلمت أنه يعانى من مرض جلدى قديم منذ أن كان هاربا من أعدائه الجيرونويين حينما كانوا يتولون ذمه الأمور في البلاد وهرب إلى إنجلترا وعاد إلى فرنسا متخفيا في سرداب (مواسير المجارى) حيث كان يرسل المقالات المحرضة للعامة ضد الجيرونديين وكانت النتيجة أن أصيب بالمرض الجلدى الذي شوهه وأصاب جلده بالكامل لينتهى به الحال إلى الاكتفاء بمحاولة تخفيف الألم فقط بالجلوس طوال النهار في حوض من الماء الدافئ وبهذا انعزل عن الناس ولم يعد يقابل أحدا.

وبدأت تبنى خطتها على ذلك، فأرسلت إليه ورقة تناشده فيها أن تقابله وكتبت في رسالتها إليه: أيها المواطن العظيم، لقد وصلت من كاين بنورماندى هذه الساعة وليس من شك في أن حبك لبلادك يُرغّبك في أن تعرف ما حدث في نورماندى على أيدى أعدائك وسأزورك بعد ساعة، فأرجو من إحسانك أن تتكرم بمحادثتى، وسأفيدك بما فيه منفعة لفرنسا.

ورغم استلام (مارا) للرسالة رفض لقاء شارلوت رغم أنها كررت المحاولة ثلاث مرات لكنها لم تيأس، وذهبت إلى بيته في المرة الرابعة وهي مصرة على اللقاء، وأخذت تتحدث مع الخادم بصوت مرتفع وتلح عليه للقائه لما فيه مصلحة البلاد أملا منها في أن يسمعها ويستدعيها، وبالفعل نجحت خطتها ودخلت إليه في المكان الذي به حوض الماء وأخذت تحدثه عن جماعة الجيرونديين المعتدلين في بلدتها، وعلق مارا عليها ببرود قائلا: سوف يقتل كل من تذكرينهم قريبا تحت سكين المقصلة.

كانت شارلوت قد أخفت سكينا في صدرها وطعنت (مارا) عدة طعنات مزقت قلبه ورئتيه فدخلت خادمتاه على صراخه وشلا حركتها وسلماها للمحكمة التي يشرف عليها أعوانه ليحكموا عليه بالإعدام بسكين المقصلة، ولم تكن شارلوت نادمةً، بل كانت سعيدة بنجاح حيلتها لتخليص البلاد من ذلك السفاح، وصعدت إلى المقصلة بثبات وهدوء وفخر وقبل أن يهوى سكين المقصلة على رقبتها لينهى حياتها قالت للجماهير المحتشدة: حسبى أنى أديت واجبى.. وماعدا ذلك فباطل.

* * *

ماری أنطوانيت

كيــد النســاء

مارى أنطوانيت

عاش لويس الصغير في قصر جده لويس الخامس عشر بجناحه الخاص يقرأ في الأدب والفن والعلوم وأمور الدين، ويسبح في خيالاته لا دخل له بما يحدث في القصر، لا يعرف عن عالم النساء والملذات شيئا، ولم يهتم في يوم من الأيام بما يدور حوله في ذلك القصر الكبير، ولم يدر حتى بخلده أن يستدعيه جده يوما ليخبره بأنه تم اختيار إحدى النساء لتكون زوجته حتى فوجئ بتحديد اليوم الذي سيصبح فيه زوجا لفتاة اختارها له جده الملك، وكانت العروس هي (مارى إنطوانيت) ابنة الإمبراطورة ماريا تريزة إمبراطورة النمسا، وأنها في الطريق من فيينا إلى باريس.

في الوقت الذي انتابت فيه الحيرة ذلك الصبى الذي لا يعرف شيئا عن عالم النساء ولا علاقة له بكل الملذات والذى نزل الخبر على رأسه كالصاعقة جعله في دوامة لا يدرى كيف يخرج منها.

فهو لا يعرف شيئا عن الزواج ولا يدرى فيم يسأل معلميه ورجال الدين الموجودين حوله، وانتظر الواقع وهو يدور في دوامته، بينما الأميرة الجميلة تحمل أحلاما بالملك والمجد الذي عاشته والدتها وموت لويس الخامس عشر الذي سيجعل منها إمبراطورة فرنسا ولم تنس حياتها الخاصة مع ذلك الرجل الذي سيجعل منها هذه الإمبراطورة رغم أنها لم تتجاوز مثله الخامسة عشر.

أخذت تحلم بالحب الذي سيمنحه لها الشعب الفرنسى، كانت تحلم بلحظات اللقاء الأولى حين يمسك ذلك الكاردينال الشاب بيدها ويقول لها:

- ستكونين أيتها الأميرة بيننا صورة حية لأمك الإمبراطورة المحبوبة.

ودارت في رأسها كلمات أمها وهي تودعها " كونى زوجة طيبة وأميرة محبوبة من الشعب، لأن كراهية الشعوب هي سبيل الانهيار دائما ".

أمضت مارى أنطوانيت طريقها كله في أحلامها وحين وصلت إلى باريس وجدتها قد ازدانت لاستقبالها، وأنفق على هذه الزينات عشرين مليونا من ا لفرنكات في أول ليلة من الاحتفال، وحين جاء الليل كانت كل ذرة فيها تنتظر اللحظة التي ستكون فيها بين أحضان زوجها دون وصيفات ورجال حاشية، وقبل الانصراف تقدم العروسان لطبع قبتلتين على جبين الملك لويس الخامس عشر جد العريس ثم انتحيا لتقبل التهانى من المدعوين قبل أن يصحبهما الوصيفات إلى المخدع الملكى، ثم انسحبن في هدوء بعد ذلك ليتركانهما معا.

كانت مارى أنطوانيت متدفقة الأنوثة رائعة الجمال في تلك اللحظات كانت كل ذرة في جسدها تنتفض، حين اقترب منها زوجها أغمضت عينيها، وانفجرت الدماء في شفتيها في انتظار القبلة التي سيطبعها على شفتيها زوجها ليضمها بعدها إلى صدره وأخذ صدرها يهتز بعنف واقترب منها لويس وأخذت أنفاسها تتسارع وهي تشم رائحة أنفاسه تقترب منها لكنه طبع قبلة باردة على جبهتها وهو يمسك يديها الصغيرتين ليأخذها ويجلسان على مقعد بالغرفة، وانتظرت أن يسمعها بعض الكلمات الجميلة التي يعبر فيها عن شوقه لها وهيامه بها، لكن ذلك أيضا لم يحدث ثم انسحب في هدوء إلى جناحه الخاص ليتركها تلقى بجسدها الملتهب على السرير تبلله بدمعها.

مع كل ليلة من ليالى الاحتفال كان يتكرر نفس المشهد حتى انتهى اليوم الخامس عشر من الاحتفال وأطلقت في هذه الليلة الألعاب النارية التي كانت تتابعها مارى من نافذتها المطلة على الميدان

وأفاقت على الصراخ والصخب وهي ترى النصب المعلقة عليها المشاعل تندلع النيران فيها.

كانت تراقب الأحداث من نافذتها وترى المنكوبين الذين يتساقطون مختنقين من النيران والدخان ورأت أن ذلك نذير شؤم لها ولحياتها الزوجية التي لم تبدأ بعد.

لم تعرف مارى من الزواج إلا تلك القبلة التي يطبعها لويس على جبهتها في نفس المكان الذي لم يغيره وشعرت أن آمالها تنهار.

ويتكرر نذير شؤم آخر حيث ينصب زوجها ملكا لفرنسا وبعد ساعة واحدة ينتشر الطاعون في باريس ليهربا تاركين جثة الملك ثم يعودا فيأخذوه إلى سان دنيس.

لم يقتصر الأمر على الملكة التي تزوجت شفاهة بل أن الوصيفة النمساوية التي أتت مع الملكة والتى كانت تعلم كل شئ تحدثت إلى شقيق الإمبراطورة والدتها (خال الملكة) ليحادث الملك ويذكره بواجباته الزوجية وتحدث معه بصراحة فيما يجب أن يفعله.

كانت مارى أنطوانيت قوية الشخصية لذا سيطرت على الملك من اللحظة الأولى وساعدتها هذه الظروف أيضا على ذلك حتى أصبح الملك فردا من حاشيتها لتنفرد هي بحكم فرنسا، لقد كانت مارى أنطوانيت تحلم بحكم فرنسا ردا على ما كان يدور برأس لويس الخامس عشر من أن يجعل من النمسا حليفة لفرنسا ولهذا اختارها زوجة لحفيده.

أحبها الشعب الفرنسى لجمالها ورقتها وذكائها النادر مما أثار عليها حسادها وفى مقدمتهم عمة لويس مدام دى بارى خليلة الملك لويس الخامس عشر وغيرها، فرض يمكن المؤامرات والدسائس لها وساعدتهن هي بتصرفاتها الطائشة وهدم خبرتها ودفعها أيضا ظمأ

جسدها الذي لم يطفئه زوجها لويس وانتشرت الشائعات في القصر وخارجه.

كانت تقيم الاحتفالات الصاخبة العامرة بالخمر والرقص والفجور وبعد انتهاء الحفل في تلك الليلة ذهبت إلى غرفتها لترتمى على سريرها تتمنى أن ترى (روجيه) ذلك الضابط الشاب ذى التسعة عشر ربيعا المليء بالفتوة والعنفوان والذى التقته في إحدى رحلات الصيد وكانت قد أخبرته أن يأتى إليها عن طريق باب سرى تحرسه وصيفتها، وكانت ليلة صاخبة ولم يستمر الأمر طويلا في الضحك والمتعة فقد دخل عليها الملك (زوجها).

نظرات ذاهلة من الجميع وأقدام لا تحمل أصحابها، تضرع من العاشقين ودوامة تدور برأس الملك وهو يرى كبرياءه ينهار مع قلبه المفعم بالحب للملكة ولعجزه عن إمتاعها، واستدار وهرع إلى حجرته وأغلق الباب خلفه وأخذ يبكى بصوت مسموع، فقد أدرك وقتها أن الحب الكبير الذي منحه لها وملك فرنسا التي أصبحت هي الحاكمة لها يمكن أن يعوضها عن هذه اللحظات.

شجع ذلك الملكة أن تعود إلى ما كانت عليه لتنال ما تريد من المتعة وتواصل الاستمتاع مع الضابط الشاب الذي أخذت تهدئ من روعه وتطمئنه.

لم يصدق الفتى أن الملك من الممكن أن يعفو عنه ورغم كل المغريات آثر أن يختفى بعيدا ولا يقترب من القصر لمدة شهر حتى صدر الأمر بنقله إلى مكان آخر بعيد عن باريس، لكن الملكة هرعت وراءه وأقامت ركنا صغيرا تلتقى فيه الضابط الشاب وكان يحرس ذلك الركن ضابط شاب اسمه (أرمان دى سان جرمان) وشاهد وسمع كل ما يحدث بين الملكة وعشيقها، وبدأ هو الآخر يصرخ

الذنب في أعصابه ويطمح إلى نيل المتعة من أنوثة الملكة متدفقة المشاعر ويبدو لها وأنه يكون في خدمتها حتى انتبهت إليه.

ذات يوم دب الخلاف بينها وبين عشيقها الضابط الشاب وكان جرمان قريبا من المكان وأدرك بذكائه أن لحظة دخوله إلى مخدع الملكة قد حانت فدخل إليها في خضوع ليسألها إن كانت تريد منه شيئا لكنها صرخت في وجهه بالخروج لكنها ما لبثت أن هدأت وأخذ مكان عشيقها في مخدعها بعد ذلك.

وعلم الملك بكل هذه الأمور لكنه لم يكن قادرا على مواجهة الأمر بنفسه لذا عهد به إلى واحد من أبرع رجال البلاط هو مدير المراسم الذي كان يحقد على الملكة التي صدته من قبل حين حاول اجتذابها إليه، ودبر الأمر وفى إحدى اللحظات التي كان فيها أرمان يغادر مخدع الملكة وجد من حوله مجموعة من رجال الحرس الذين قادوه إلى الباستيل حيث أعدم بلا محاكمة، وكان الضابط السابق له والذى وشى به قد لقى نفس المصير ولم تستطع مارى أنطوانيت أن تفعل شيئا سوى البكاء.

كانت أخبار الملكة الأجنبية هي حديث باريس وكانت الأخبار تدور حول استهتارها وتهتكها وانغماسها في اللذات، بينما الشعب يلهث في سبيل الحصول على لقمة العيش وهي تقيم حفلات المجون والرقص ورحلات الصيد ووصلت أخبارها إلى أمها التي أرسلت لها مع سفير فرنسا بالنمسا أن يخبرها أنها ستفقد عرشها وقد تفقد حياتها إذا لم تفئ إلى رشدها.

كان الكاردينال دى روهان هو الذي استقبل الملكة في ستراسبورج حين أتت من فينا، وقد سمعت ممن كن حولها أن الكاردينال الشاب يعيش في بذخ وترف وينفق أموالا طائلة في الحفلات والولائم لكنها

لم تكن تعلم أن ذلك الكاردينال كان يعشقها وأنه كان يتابعها حتى بعد أن صارت ملكة وصار هو سفيرا في بلاط ماريا تريزا في النمسا التي كرهته لكثرة تجسسه عليها وأشركت ابنتها الملكة في كراهيته حتى أُعيد من النمسا إلى باريس، واستمر روهان في محاولة تقربه للوصول إلى الملكة ولم يكن الأمر رغبة في امتلاك قلب الملكة بل كان يريدها ليحصل عن طريقها على القصر حاكما لفرنسا كما كان من قبله الكردينال ريشيلو والكردينال مازران والكردينال فلورى، ويبذل الوساطات لذلك.

كانت هذه الأطماع كفيلة لأن توقعه في شرك محتالة بارعة أوهمته بقدرتها على القيام بذلك هي الكونتيسة دى لاموت وطلبت منه أن يدع لها تدبير الأمور، وأن يصنع ما تقوله له دون جدال، وابتلع الكردينال الشاب الطامع في الحكم طعم الكونتيسة وأخذ يدفع لها من المال ما تطلبه منه كل يوم ويصدق الرسائل التى تأتى بها بتوقيع الملكة وعرفت كيف تقود إلى خلوه في حديقة القصر يلتقى فيها الملكة للحظات تعبر له فيها عن رضائها عنه، وبالفعل لثم ثوبها وسمع صوتها وظن أنه بذلك سيصبح مثل من حكموا فرنسا قبله ولم يدر بخلد الكاردينال المغفل أن من اختلى بها ليست سوى فتاة شبيهة بالملكة دفعتها الكونتيسة لتمثل الدور بالقليل من المبالغ التي تنالها منه.

علمت الكونتيسة أن تاجرا للمجوهرات اسمه (بوهمر) كان قد صنع عقدا بقيمة أربعة وعشرين مليونا من الفرنكات أوصاه عليه الملك ومات قبل أن يشترى العقد وانطلق التاجر في محاولة لإقناع لويس السادس عشر لشراء العقد للملكة مارى أنطوانيت، وكانت الكونتيسة تعرف أن الكاردينال على استعداد لتلبية أى طلب للملكة اعتقادا منه أنها قد وقعت في غرامة، فذهبت إليه لتخبره أن الملكة ترغب في

شراء العقد ولولا عجزها عن الحصول على ثمنه الكبير دفعة واحدة وأنها أرسلتها إليه وهي تأمل أن يشتريه نيابة عنها فيوقع على العقد ويدفع الثمن ثم يسترد الثمن على دفعات وصدق الكاردينال المغفل واشترى العقد وأرسله مع الرسول الذي أرسلته الكونتيسة التي استولت على العقد وأعدت العدة للفرار غير أن الشك راود الكردينال حين حضر إحدى الحفلات في القصر، ولم يجد الملكة تلبس العقد ثم ازداد شكه حين حل موعد سداد القسط الأول وأتته الكونتيسة تخبره أن يؤجل السداد بضعة شهور.

وبدأ الأمر يكتشف حين ذهب التاجر إلى القصر ليشكر الملكة على تنازلها بشراء العقد وقبوله ما عرضه الكاردينال من إرجاء دفع القسط الأول، وهكذا عرفت الملكة بقصة احتيال الكونتيسة فانطلقت إلى الملك تطلعه على كل شئ وتطلب القبض على الكاردينال الذي اتهمته باستغلال اسمها وتزوير توقيعها وبالفعل ذهب إليه رجال البوليس للقبض عليه أثناء وجوده في الكنيسة وتم اقتياده بلبسه الكهنوتى إلى سجن الباستيل.

غضب الشعب لاعتقال الكاردينال واعتقد أن الأمر تم سبب كونه أحد عشاق الملكة وأنها خدعته لشراء العقد لها إرضاء لنزواتها ثم ألقت به في السجن، وغضب كذلك رجال القصر ورجال الدين وتم تداول القضية أمام القضاء وطبعت المنشورات تتهم الملكة بتدبير تلك المؤامرة ورغم القبض على الكونتيسة إلا أنها ظلت تردد أن الملكة هي التي طلبت منها شراء العقد وأنها تسلمته ورغم أن القضاء أدان الكونتيسة وحكم عليها بالجلد والسجن مدى الحياة وبرأ الكردينال إلا أن الملك - بتحريض الملكة - أصدر الأمر للكاردينال بالاستقالة من منصبه والعيش في أملاكه خارج باريس، وهو ما زاد غضب الشعب واستمرت الأمور في الغليان ولم تنتبه الملكة لذلك

ولا لنصيحة أمها.

ودفع الجوع الشعب إلى ترتيل الأغنيات التي تحمل أسماء عشاق الملكة ومجونها وعبثها ويرددون الأشعار في فضائحها ولم تهتم الملكة لكل ذلك.

ازداد الفقر في فرنسا وانطلقت ثورة الجياع في باريس يتقدمها النساء يهتفن: خبز.. خبز.. وأخذ الشعب يصرخ:

- تسقط النمساوية الخائنة.

وبدأت الجماهير تتحرك داخل القصر وأمكن منعها من ذلك. وبدلا من أن تعدل الملكة سلوكها وتتقرب من الشعب لإنقاذه من الجوع والفقر، استمرت في عدائها للشعب والرغبة في تحطيم ثورة الإصلاح، ودبرت خطة للهروب من العاصمة إلى خارج البلاد ليهاجموا الشعب من جديد بمعاونة أخيها الإمبراطور ليوبولد وبعض ملوك أوروبا من عون حربى.

واستسلم الملك لزوجته وأعوانها بما فيهم عشيقها الكونت دى فرسين وأخذ الملك يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء لنجدته ووقعت الرسائل في يد الشعب.

بعد فترة تم الهجوم على الملكين وقبض الشعب عليهما وأودعهما سجن التامبل ليقضى الملك أيامه نائما أو مشتغلا بالتدريس لأبنائه، بينما تقضى الملكة وقتها في التطريز وتدبير مشروعات فرار باءت جميعها بالفشل.

وبعد فترة أعدم الملك، وحاول الكونت دى فرسين تهريب الملكة، وخطط كثيرا لذلك، وكاد ينجح لولا أن كشف الوشاة أمره وكادوا يقتلونه به، فهرب وتلقى بعد ذلك خاتما من الذهب مع رسول خاص ورسالة من مارى أنطوانيت تقول فيها " لم أشق بسجنى قدر ما فرحت بنجاتك وذلك ما يدعونى إلى أن أهديك هذه الهدية البسيطة

التـي أرجـو أن تعجبـك وأسـتحلفك أن تكتـب إليـه (كل شـيء يقودنى إليك) واذكر دائمـا مـارى التـي أحبتـك حتـى المـوت وتمـت محاكمـة مـارى أنطوانيـت وإعدامهـا وكـان السـبب فسـادها الأخلاقـى وحياتهـا المستمرة في خديعة كبرى لكل من حولها.

* * *

ست الملك

كيــد النســاء

ست الملك

هي ابنة العزيز بالله من زوجة نصرانية جميلة من بلاد الشام كان العزيز قد استوزر عيسى بن نسطوس النصرانى لكنه كان متعصبا لبنى جلدته ومسيئا للمسلمين وإذا شكا إليه أحد من سوء معاملته يقول:

إن شريعتنا متقدمة والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم فجرتم علينا بالجزية والمذلة فمتى كان معكم إحسان إلينا حتى تطالبونا بمثله.

كان عيسى بن نسطوس مستمد قوته وجبروته من مساندة زوجة العزيز النصرانية وابنته ست الملك، ليس هذا فقط بل إنه استنتاب بالشام " منشا بن إبراهيم " اليهودى الذي كان ينحاز أيضا إلى أبناء جلدته كما يفعل عيسى.

كان أبوها العزيز بالله يستشيرها في الكثير من أمور الملك، وكان يستمع إلى نصائحها اعترافا بذكائها وحسن تدبيرها، وحين توفى العزيز بالله تاركا ولده وولى عهده وكان عمره آنذاك اثنتى عشرة سنة بينما هي في السادسة والعشرين وقامت بالفعل بمسئولية تدبير أمور الدولة وتوجيه أخيها الصغير والحفاظ على الدولة حتى استطاع بمشورتها أن يحافظ على الحكم بعيدا عن الأوصياء، وتحملت التصرفات الهوجاء لأخيها وسلوكياته القريبة في ميله للعنف والإسراف في القتل وإصداره لقوانين غريبة واحكام متناقضة ورغم أنها كانت تنصحه كثيرا من عواقب تلك السلوكيات وتحذره مما يمكن أن يحدث نتيجة لذلك، وبدلا من الانصياح لنصائح أخته الأكبر والأكثر خبرة منه كان يغضب ويزداد في سلوكياته الشنيعة بل ويتفنن في البحث عن أشياء سيئة أخرى ليضيفها إلى مساوئه وربما كان هناك من ينصحه أو يشجعه على ذلك.

ومن تلك الأمور كثرة الضرائب وجمع جواريه ووضع صندوق من الحديد ويلقى بهن في النيل،وأشاع الاضطرابات في المجتمع بعد إسرافه في سفك الدماء وإقالة الوزراء ورجال الدولة دون سبب.

لم يقتصر ظلم أخيها على طبقة معينة بل طال ظلمه كل الطبقات دون سبب حتى بلغ ضحاياه أكثر من عشرة آلاف شخص.

ومن أطرف قراراته التي اتسمت بالغباء الشديد كتحريم بعض الأطعمة وتحويل النشاط والعمل إلى الليل بدلا من النهار ليجعل من الشعب المصرى كائنات ليلية وحظر التبرج على النساء بل ومنهم من الخروج من بيوتهم ويدعم قراره هذا أن يحظر على صانعى الأحذية صنع الأحذية النسائية حتى لا يجدن ما يخرجن به في أرجلهن.

ليس هذا فقط، بل إنه كان يشجع الدعوات السرية الإلحادية ثم يلجأ هو إلى التقشف والزهد ورصد النجوم ليلا من على جبل المقطم.

لا تتوقف ست الملك عن نصح أخيها الذي تبدو كل تصرفاته مختلة ومتناقضة لكنه لا يرتدع ويحكم عليها بالعزلة إيمانا منه بأن النساء لا يصلحن لشؤون الحكم، لكن كل الأمور الماضية رغم بشاعتها كان يمكن أن تُحتمل لكن حدث ما هو أفظع من كل ذلك وهو ما جعل ست الملك تخشى على زوال ذلك الملك ونهاية الخلافة الفاطمية حين علمت بانتشار مذهب الملاحدة والفرس ومناداتهم بألوهية الحاكم زاعمين أنه ليس مثل بقية البشر وإنما هو رمز حل فيه الإله وبدلا من أن يبطش بهم أخوها ويرفض دعوتهم الهدامة والمنافية للإسلام يحميهم ويبارك دعوتهم، وبهذا سقطت الورقة الأخيرة وازداد غضب الشعب وسخطه ليحدث الانفجار حين ذهب هؤلاء الملاحدة إلى جامع عمرو بن العاص لنشر دعوتهم وحدث

الصدام وينحاز الحاكم المخبول للملاحدة ويأمر بإحراق الفسطاط لعقاب الناس عقابا جماعيا.

لم تجد ست الملك وسيلة مشروعة لإعادة أخيها إلى جادة الصواب وليس لديها جيش لتواجهه ولم تجد سوى المكيدة فدعت سرا الحسين بن الداوس زعيم قبيلة (كتامة) أقوى القبائل المغربية وأكثر الناقمين على أخيها لاضطهاده وبطشه بقبيلته وعرضت عليه ما فكرت فيه وما انتهت إليه الأمور من الظلم والفوضى والاضطرابات، وتحدثت معه في ضرورة إيجاد طريقة لوقف أخيها عن غيه حتى لو أدى الأمر إلى قتله بدلا من تمزق الدولة ودفعا للأخطار التي تتهدد الدولة الإسلامية بل والإسلام، وكانت فرصة عظيمة لابن الدواس الذي بدأ يفكر في خطة للخلاص من المعز بالله والتى تتلخص في إرسال عبدين من أخلص عبيده فأعطتهما ست الحسن أموالا وفيرة وحصانين وسكينتين وتم الاتفاق معهما على أن يكون التنفيذ مساء اليوم التالى (ليلة الاثنين ١٣ من فبراير ١٠١٢م) حيث خرج المعز بالله لرصد النجوم من على جبل المقطم الذي يذهب إليه على حماره وكان القتل أو الأمر بالقتل فرصة للعبدين اللذين انقضا عليها وقتلاه وهو من كانا معه وقطعا قوائم الحمار وحملا جثته إلى ابن الدواس الذي حملها إلى أخته ست الملك لتدفنه في مجلسها.

ولأن الأميرة الفاطمية كانت حريصة أكملت خطتها بعد ذلك فقامت بالمكيدة أيضا بتدبير قتل كل من شارك في عملية القتل ونصبت ابن أخيها الظاهر أبى الحسن على كرسى الخلافة.

* * *

الفهـرس

كيــد النســاء

الفهرس

* * *